د. محمد بابا عمي

من بنات الأسفار

خواطر، ومقالات، ومذكرات
وليدة رحلاتي وأسفاري...

غايتنا رضوان الله سبحانه وتعالى

الإسهام في ترشيد الأمة بمنهج علمي من منطلق قرآني

بسم الله الرحمن الرحيم

المكتبة الوقفية
للدكتور محمد بن موسى بن داعمي

مقدمة

ألِف الناس استعمال عبارة مجازية يردِّدونها، وهي قولهم: «بنات الأفكار»، ويريدون بها ما جادَتْ به قريحتُهم، وما كان نتاجَ تعقُّلهم وتفكُّرهم وتخمينهم؛ ولمحمَّد بن طولون كتاب بعنوان: «بنات الأفكار»، يبدو أنَّه لا يزال مخطوطًا في دار الكتب المصرية.

وقد استعرتُ عنوان الكتاب من هذا التعبير البلاغي، فسمَّيته: «بنات الأسفار»، ثم ألحقتُ به «مِن» للتبعيض؛ أي أنَّ ما ورد فيه هو «بعضُ» ما ألِفت وحرَّرت في رحلاتي العلميَّة والفكريَّة، وفي أسفاري العمليَّة والوظيفية؛ داعيا الله تعالى أن ييسِّر الأسباب لنشر ما دوَّنتُه من مذكِّرات ومقالات وخواطر، في رحلاتٍ أخرى؛ ذلك أنَّ مِن عادتي، في كلِّ سَفَر، مهما كان قصيرا أو طويلا، أن أفتح دفترا جديدًا، وأجتهد في تدوين الوقائع والعبر، مما يعتلج في عقلي، ويختلج في وجداني؛ بهدف العودة إليه بعد أمدٍ، أو بنيَّة إفادة الناس به، نشرًا لبركة العلم، وإنفاقا في سبيل المعرفة؛ داعيا المولى جل وعلا أن يجازيني خير ما يجازي به عباده الصالحين؛ وما فعلي هذا إلا استجابة لأمره سبحانه: «قل سيروا في الأرض، ثم انظروا».

ولقد اكتفيت في هذا الجزء بأربعة عناوين، رتَّبتها زمنيًّا، ليقرأ المحلِّل - مِن خلالها - الرسمَ البياني لتطوُّر الأسلوب والشكل، وليقارِن بين عرض وعرض، وبين موضوع وموضوع.

وهذه الرحلات هي:

1 - **الرحلة الفارسية، إلى إيران.**

2 - **المقالة الدمشقية، إلى سورية.**

3 - **تجليات كندية، إلى كندا.**

4 - **مقالات فاتح القسطنطينية، إلى تركيا.**

ولا مناص من تسجيل جملة مِن الملاحظات بين يدي هذا العمل، لتكون إشاراتٍ في الطريق، يستدلُّ بها القارئ الكريم، وهو في هذه

الرحلات نعم المُرافِق والصاحِب، يُحسُّ بما أحسُّ به؛ فيُسَرُّ لكلِّ جميل ومليح، ويحزن عند كل هزيل وقبيح، ثم يتعب لتعبي، ويرتاح لراحتي، فينال أجر الصبر معي. وليعذرني إن أنا أخطأت التقدير، وليدعو الله لي إذا أصبت في التفكير والتدبير؛ وجملة الملاحظات هي:

أوَّلا- كلُّ ما أكتبه، في هذا السِّفر، وفي غيره، دافِعه الحرقة والهمُّ الذي يمزِّق أحشائي، ويذيبني كمدا وأسفا، فليس في قلبي - بإذن الله - شرو نقير من التحقير، أو التعيير... والله على ما أقول شهيد.

ثانيا- أنَّني، غالبا، في مذكِّراتي حول العالَم، أتتبع النقاط الإيجابية في البلد الذي أزوره، وأجتهد في تصيُّد الإضاءات النيرة لأهل تلك البلاد؛ وهذا - طبعا - لا ينفي وجود ما يَشين، كما لا يبرِّر تتبع السقطات والندبات، ولا يسوِّغ العيش في مواطن المزابل، ومعاطن الإبل... وأرى أنَّ ذكر الشرِّ والتشهير به كثيرا ما يكون مدعاة للدعوة إليه، والاحتفاء به...

ثالثا- ما أورده من نقائص عن بلدي، وعن وطني، وعن مَصري، وعن أهلي، وعن نَفسي... هو من قبيل

«وأنذر عشيرتك الأقربين» (الشعراء، 214) . . .

مبعثُه الحبُّ، والشفقة، والحرص على أن يبلغوا أعلى المراتب، ويبزُّوا أعتى المواكب.

رابعا- إنَّ الهدف من كلِّ سفَر من أسفاري هو نصرة الخير والانتصار له، ومحاربة الشرِّ ونصب الحواجز في طريقه... ولذا أجدني أحمل عقلي معي، لا أزمُّه في حقيبتي، ولا أحنِّطه بين الأسواق الشهيرة، ولا بين مرايا الحوانيت الكبيرة، فقد تحرِّكني أدنى عبارة، وقد تهزني أصغرُ إشارة، فأنطلق منها للتعبير عن أوسع المعاني وأجمل المباني، الفنية والعلمية والتاريخية والحضارية...الخ. فإن وفقت في ذلك فمن الله، وإن أخفقت فهذا ضعفي، أستغفر الله منه.

خامسا- أعتبر كلَّ حرف كتبته ونشرته، ثم قرأه قارئٌ، من أقصى العالم أو أدناه، صدقةً أرجو ذخرها وبرَّها عند الله تعالى،

ولذا أجد السعادة كلَّها كلَّما علمتُ أنَّ أحدا من الناس استفاد مما كتبتُ، وازداد علما وعملا، وبهذا أفهم قول الله تعالى:

«وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه» (سبأ، 39)

فـ «الشيء» في هذه الآية واسع الدلالة، منه إن شاء الله ما أكتبه، وكذا صيغة «فهو» عوض «فالله»، إنما هي لقُرب الأجر والعطاء الإلهيِّ من كل واحد منَّا... فاللهمَّ لا تحرمنا أجرك، وأخلفنا خلفة طيبة حسنة، آمين...آمين.

سادسا- وأخيرا: إنِّني أحمل معي في حلِّي وترحالي «المنظومةَ المعرفية الرشيدة»، أحفِر فيها، وأبحث لها عن تمثلات في الواقع، وأصوغ أسسها وأعيد، وفق «نموذج الرشد»، والذي أعرِّفه بأنه: «ذاتية اتباع الأسباب»؛ فأنا إذن أحاول أن لا أنظر في السطوح والسفوح، بل أغوص في الأعماق وأبتلي الأذواق؛ إنني باختصار، في رحلة تتبع الأسباب، مسترشدا بفعل ذي القرنين الذي آتاه الله من كل شيءَ سببا «فأتْبع - أو فأتبع - سببا». إلا أنَّ الرحلات الثلاث الأولى جاءت قبل صياغة «النموذج» لفظا وعبارة، وإن كانت الإرهاصات قد أهلت، مَبنى وإشارة، فهي لا تخلو من جملة أو فقرة، سجَّلتُها ونسجتها ضمن أبعاد النموذج، وبخاصة أنَّ ما أكتب عادة يولَد من رحم المعاناة، ولا ينفصل عن الواقع، ولا عن المشاريع؛ فهو منها بمثابة الأرض للسماء، وهي منه بمقام الزرع للماء.

إذا وضُحت هذه المقدِّمات، ولجتُ بحياء في كتابي هذا، وهو مختلف نوعا ما عمَّا سبقه، وسبحان القائل في محكم تنزيله: «إنَّا نحن نحيي الموتى، ونكتب ما قدَّموا وآثارهم، وكلَّ شيء أحصيناه في إمام مبين. واضرب لهم مثلا...».

والحمد لله ربِّ العالمين

محمد باباعمي

بني يسقن؛ أمسية يوم الخميس

19 ربيع الثاني 1432هـ - 24 مارس 2011م

الرحلة الفارسية

كانت الرحلة بين الجزائر وطهران، عبر استانبول؛ من يوم 9 ماي إلى 16 ماي، 2007م.

يوم السفر:

بسم الله العظيم كانت الانطلاقة من المطار، وذلك بُعيد صلاة الظهر التي جمعْنا بها صلاة العصر جمعَ تقديم؛ حامدين الله تعالى تلكم الراحة والطمأنينة التي غمرت قلوبنا لاتصالنا بخُالقنا، متأسِّفين من انعدام المصلَّى في جهة المغادرة من المطار الدولي الجديد، رغم أنَّ بلدنا مسلم، ويُنتظر منه أن يحترم الإسلام وأهله... ولكن!.

❖ في مقاعد الانتظار بالمطار تناولنا مواضيع عدَّة، كان أمثلُها الحسرةُ على تخلُّف وطننا مقارنة بالإمكانات والخيرات التي حباه الله بها، وتساءلنا عن الأسباب: هل هي تاريخية؟ أم ثقافية؟ أم أنها تربوية؟...

الجواب لا يكون بإلقاء الكلام على عواهنه، أو بالرأي النشاز فقط، ولا بكثرة التحسُّر والتأسُّف ولوم الآخرين؛ لكنَّ البحث العلميَّ الجادَّ والمتعدِّد الجوانب كفيلٌ بذلك، بإذن الله تعالى... ففي الجواب تتشابك عدَّة مؤثِّرات: دينية، وفكرية، وتاريخية، واجتماعية، ونفسية، وسياسية، وثقافية، وتربوية... واختزالُ الحلِ في سبب واحد - مع إلغاء الأخرى - سيظلم الموضوع عوض خدمته، ولا ريب.

❖ داخل الطائرة لاحظنا الكثير من الأتراك - رجالا ونساء - وهم على العموم مهذَّبون، دمِثو الأخلاق، هادئون؛ ولقد جاءوا إلى الجزائر في إطار نهضتهم الصناعية، إمَّا للمشاركة في المعرض الدولي للصناعة بالجزائر، أو للاتصال بتجَّار ومستوردين أصحاب الشركات الجزائرية، أو للعمل في شركات أنشِئت في الجزائر في السنين الأخيرة، بأموال وسواعد وأفكار عثمانية، متميِّزة بالجودة والإتقان الكبير، ولقد علمنا - من قبل - أنَّ في الجزائر اليوم الآلاف من أعضاء الجالية التركية.

❖ وإنَّ لرحلتنا لأهدافا معتبرة، ندعوا الله أن يهبنا التوفيق بفضله ومنِّه لتحقيقها، كما خطَّطنا لها، وأكثر مما خطَّطنا، إنه سميع قريب مجيب.

ولعلَّ أبرز تلكم الأهداف هي:

- زيارة المعرض الدولي للكتاب.
- زيارة سياحية لأهم معالم إيران (طهران، قم، أصفهان...).
- الاتصال بمراكز علمية، ومعاهد، وجامعات متخصِّصة في الحضارة والفكر والمنهج (إقامة علاقات علمية).
- الراحة والنزهة.
- تبادل الأفكار بيننا، والتخطيط لمشاريع مكتب الدراسات.
- أهداف تجارية لبعض منا.

❖ كما أنَّ كلَّ واحدٍ من الجماعة ترك خلْفه أعمالا ومشاغل وارتباطات متشابكة، وقصدَ رضوان الله تعالى في سفر إيمانيٍّ علمي، وهي الغاية الكبرى التي ننشُدها، وقد لا يجود الزمان بمثل هذه الفرصة لنا أو لبعضنا، لكن لا علينا لو لقينا الله سبحانه بعد السفر إلى جواره وهو عنَّا راض. وفي إيران مثلٌ فارسيٌّ معناه: «مَن أمِن الوعيد، فأيامه كلها عيد».

السفر إيمان...

السفر معرفة... السفر راحة... السفر هبة من الله لعباده المخلَصين، إذا هم شكروا؛ وهو بلاء لعباده الضالِّين، إذْ هم بنعمه قد كفروا. وبالسفر ترتفع النفس من وحل المشاغل الآنية الدُّونية اليومية، وتعلو الهمَّة إلى اهتمامات بعيدة خطيرة خالدة...

ولا يدرك هذه المعاني إلاَّ من حمل عقله معه، وأودعه سويداء فؤاده وبصيرته، ولم يعطله بالسفاسف والمعاصي، وحرَّره من قيود الزمان والمكان، وأبعده عن حوزة الشيطان، ليعليه إلى مقام أنزله فيه الرحمان.

وكم من ممتط عنان السماء، قلبه مخلَدٌ إلى الأرض، وعقله يتمرَّغ في الضحضاح، كلاهما لاصق بالتراب؛ غير أنَّ ثمَّة ناسا لم يخرجوا من حدود بلدهم، لموانع تفوق طاقتهم، لكنَّهم طيور مهاجرة في فضاءات المعرفة

والعرفان... أولئك الأبرار الأطهار.

❖ الساعة اللحظة 14:03، ولمَّا نغادر أرض المطار، فقد تأخَّرنا عن موعد الإقلاع أكثر من ثلاثة أرباع الساعة، رغم أنَّ الطائرة تركية.... فأين الخلل؟ لا ندري!.

❖ الساعة 15:05، ونحن في سماء البحر الأبيض المتوسط، وقد طعِمنا بحمد الله تعالى غداء طيبا، سبحانه وهو القائل: «وفي السماء رزقكم وما توعدون».

ولقد دأب المفسِّرون في القديم على إحلال حرف الجر «مِن» عوضا عن حرف الجرِّ «في»، أي: «ومن السماء رزقكم...»[1]؛ ذلك أنَّ مجرَّد طيران الإنسان يوما ما لم يكن يخطُر ببالهم، فكيف بالجلوس فوق السحاب، وحضورِ الموائد الطيبة فيها، كأنَّ الجموع في صالون لهم فيه مرفِق بل مرافق[2].

تفكُّر في دورة الرزق:

من عجيب ما تأملته وأنا في هذا العلوِّ: أنَّ الأمطار تسَّاقط منه، ومن قبلُ كانت بدايتها وديانا وأنهارا وبحارا على الأرض، ثم تعود من السماء إلى مستقرِّها، لتنبت نباتا وأشجارا وغلَّة، ثم يلتقطها الإنسان فيُنضجها ويعلِّبها ويعتني بها، ثم ترتفع بعد ذلك إلى السماء على متن طائرة، فيأكلها الإنسان، ثم يعيدها إلى الأرض وهي في قرارة بطنه، لتُحوَّل بعد ذلك إلى طاقة: عملا، أو فكرا، أو سمادا... ثمَّ ثمارا يانعات يطيب مأكلها، فالله جلَّ جلاله

«هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ» (النحل 10).

وهو القائل: «وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ، وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» (يس 35).

---

1 قال القرطبي في الجامع: «قال سَعِيد بْن جُبَيْر وَالضَّحَّاك: الرِّزْق هُنَا مَا يَنْزِل مِن السَّمَاء، مِنْ مَطَر وَثَلْج، يَنْبُت بِهِ الزَّرْع وَيَحْيَا بِهِ الْخَلْق».

2 قال تعالى: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا»، يقول صاحب تفسير الجلالين: «المرفق بِكَسْرِ الْمِيم وَفَتْح الْفَاء، وَبِالْعَكْسِ، مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ مِنْ غَدَاء وَعِشَاء».

وقال: «وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا، وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (آل عمران 99).

وهكذا يشاء الله أن تكون دورةُ الرزق بين السماء والأرض، لا أحد يملك أن يوقفها، أو يسرِّعها، أو يغيِّر فيها شيئا... سبحان الله وبحمده، سبحان الله.

تفكُّر ثان:

إنَّ الواحد منَّا ليعجب من ركوبه الطائرة، وامتطائه السحاب، ولا يعجب من الفلك الأكبر: «الأرض»، وهي تمرُّ وتسَّارع كالسحاب، منذ أن خلقها الله تعالى إلى يومنا هذا، لا تتغذَّى بالوقود، ولا يغيَّر ريَّانها وقُطبانها، ولا يتحوَّل اتجاهها، ولا تخفُت سرعتها، ولا تعتريها الهزَّات والموجات - شأن أحدث الطائرات -، ولا يُطلب من سكانها ربط الأحزمة حين الصعود أو النزول... ولا يَدفع الراكب مبالغ طائلة ليستقلَّ مقعدا واحدا على متنها...

إنَّ الإنسان - لجفائه - ليحار من الفلك الأصغر، الذي يحمل العشرات أو المئات، ولا يوحِّد الخالق الذي صنع الفلك الأكبر الحامل للملايير من المخلوقات، عبر الزمان والمكان، من كل جنس ولون، ومن كل حجم وشكل... مما يعرفه الإنسان ومما لا يعرفه؛ وسبحان من قال: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» (النبأ: 6).

وسيكون غريبا لو طُلب من طائرة صَنعَها البشر، أن تحمل على متنها بضعة ديناصورات، لملايين السنين، تُطعمهم وتسقيهم، وتعِدُّ لهم المراتع والملاجئ... بل، لو سُئلت الطائرة حمل ذبابة واحدة لمدَّة مائة سنة، والاعتناء بها، لما استطاعت، لأنَّ الحامل والمحمول يكونان قد لقيا حتفهما في هذه المدَّة، ولا ريب...

حقًّا ما أضعف الإنسان، وما أعجزه!

«قتل الإنسان ما أكفره»!!

تلوُّث النظر:

إني - وأنا داخل قفص الطائرة - أحاول أن أفسح للعين في الأفق، لتلتقط بعضَ المعالم، وتكتشف بعض العوالم، ولِترتاح بعد الإعياء من شدَّة الإغماض... غير أنَّ البصر عاد إليَّ خاسئا وهو حسير، يسوق أمامه معاني الأسف، ويجرُّ وراءه أذيال الخيبة، مِن هول مَن رآه أو ما لم يره مما يجرح البصر، ويلوِّث النظر... فالحديث عن التلوُّث يجب أن يتجاوز التلوُّث البيئي: الصناعي، والنووي... وعليه أن يشمل كذلك لوثات العُري، والفساد، والمعصية... فأنت تفتح العين على الشاشة التلفزيونية أمامَك، فلا تكاد تصبر عن خلسة واحدة، ثم الجرائد أمامَك والمجلات، والناسُ يتصفَّحونها، ثم ما أجمعت عليه شركات الطيران، شرقيُّها وغربيُّها، مِن توظيف العاريات المبتذلات... (للعلم لم نستقلَّ طائرة إيرانية، لنعرف قانونها، ولم يشأ الله أن نسأل: هل هي كالأخريات، أم هي مختلفة عنها).

ثم من المسافرين، بل أكثر المسافرين، من لا يخاف الله وهو يرجو عافيته... ولا يستحي منه، وهو يرجو النجاة من عقابه...

ومِن أكثر المشاهد هولا وحسرةً، ذلكم المشهد الذي أدمى قلبي، وأنا أحلِّق في سماء التأمُّل والتفكُّر، والمتمثل في يد جزائري (مسلم!)، وهي تطوي قارورة خمر، وفمه النجسة تحتسيها، وعيناه الوقحتان تسبحان في بحر الأحلام والأوهام، وقلبه الميِّت يتلذَّذ بالمعاصي والسيئات...

يدٌ أرادها الله تعالى للتشهُّد والدعاء، وخلَقها لمصافحة الأبرار والأتقياء، وصناعةِ الآلات والطائرات، وخطِّ المقالات والنظريات، وريادة الأمم والمجتمعات، ونصرة الدين والحقِّ، ونشرِ السِّلم والسعادة والرِّفق، والاستجابة إلى دواعي اليقين والإيمان... وفمٌ... وعينان... وعقلٌ... وقلبٌ... خلقها الله لذلك ومن أجل ذلك... غير أنَّ صاحب هذه الجوارح دنَّسها بنشوة عابرة، وأشقاها بنـزوة زائفة...

اللهَ اللهَ في ديننا ووطننا وعواقب أمورنا...

ودعائي في تلكم اللحظة هو: «اللهمَّ ارزقه الهداية، وأنِر قلبه للإيمان،

يا سميع يا منان...»

ونظرتي إليه نظرةُ مشفِق راحم، لا نظرةُ شامت منتقم...

❖ نزلنا أرضية مطار طهران، وكانت هذه أولى خطواتنا في هذا البلد، داعين المولى عزَّ وجلَّ أن يبارك لنا فيها، ويجعلها في رضائه...

وفي المطار كان في استقبالنا السيد مشرِّف آل طه، رغم أنَّ الوقت كان غائرا في السحَر، مؤذِنا باقتراب الفجر... إلاَّ أنَّ كرَمه وكرَم مرافقه عامِر جعلهما يتكبَّدان المصاعب، ويهجُران المضاجع، لأجلِنا... جازاهما الله عنَّا كلَّ خير.

❖ ولقد شدَّ انتباهي وانتباه الإخوة المرافقين، ذلكم المنظر الرائع من العزَّة، والذي يصنعه مشهد نساء يضعن خِمارا وحجابا على رؤوسهنَّ، مهما كانت ديانتهنَّ أو بلدهنَّ أو مستواهنَّ... إيذانا باحترام دين البلد، ولقد شاهدنا العديد من النساء على متن الطائرة - أو في مطار استانبول - وهنَّ يستبدلن اللباس المحتشم باللباس المتفسِّخ،[3] ويُرحن العيون من العنت، والقلوبَ من الأسى... فقلنا جميعا: «ألا ليت بلاد المسلمين تقتفي أثر إيران في الإعلاء من شأن الدين، بلا خشونة ولا شدَّة، لكن باحترام ومودَّة».

وبعد نصف ساعة تقريبا، دخلنا نزلا راقيا، بأربع نجوم، وآوينا إلى غرفنا في الطابق الخامس عشر، وكانت أرقامها على التوالي: 1522، و1532، و1534... وبعد صلاة الفجر جماعة، أخلدْنا إلى نوم عميق هنيٍّ، حامدين الله وشاكرين... إلى غاية التاسعة صباحا، أوان الفطور.

❖ والنزل اسمه «نزل انقلاب طهران»، بديعُ الصنع، مُحكم الجنبات، ظيف جدا؛ نطلُّ من خلاله على طهران، ونشاهد سعتها وشموخ عماراتها... لخدمة في «هُتِل انقلاب تهران» - بالفارسية - رفيعة ومحترمة... ودعاؤنا ما: «اللهمَّ أنزلنا منزلا مباركا، وأنت خير المنزلين، في الدين والدنيا خرة، يا أرحم الراحمين».

3 للتذكير: الباء تدخل على المتروك، أي ينزعن اللباس المتفسخ، ويلبسن المحتشم، والشاهد قوله تعالى: لون الذي هو أدنى بالذي هو خير» أي تتركون الخير وتأخذون الأدنى.

اليوم الأول:

المعرض الدولي للكتاب

بعد وجبة الفطور الطيبة، التي لا تختلف كثيرا عن وجبات أيِّ نزل في العالم، كان لنالقاءٌ مع مضيفنا الكريم السيد آل طه.

جلسنا نخطِّط لأسبوعنا في إيران... فاقترح علينا زيارة العديد من المراكز العلمية، ومشاهدةَ الكثير من المعالم السياحية... مما لو نفَّذناه على حذافيره، لِوَحدنا، لَلَزِمنا من الزمن أزيد من شهر في طهران وحدها...

وأخيرا كان الاتفاق على أن يكون هذا اليوم للهدف الأوَّل من رحلتنا: زيارة المعرض الدولي للكتاب... فقصدناه بعون من الله تعالى.

❖ في المعرض الدولي للكتاب، الطبعة العشرون، 1428 هـ/2007 للميلاد، وبتاريخهم الشمسي: 1386.

❖ دخلنا من الباب الخلفيِّ، وقد أقيم لأوَّل مرَّة في بناية مصلَّى العيد، وهي بناية شامخةٌ واسعةٌ، بها قبَّة كبيرة ومئذنتان، وقاعات للصلاة، وساحات فسيحة... تتربَّع على أكثر من 95000 متر مربع، تأوي من المصلِّين مئات الآلاف... لا يقلِّ حجمها الإجمالي عن حجم الحرم المدني أو المكي؛ بعض أجنحتها قد تم، وهي آيةٌ في الجمال والإتقان، وبعضُها الآخر لا يزال إسمنتا مسلَّحا... ومع ذلك علمنا من آل طه أنَّ في إيران مسجدا أكبر حجما وأبدع فنا من هذا...

في المعرض - كما رأيتُ في الأنترنات قبل السفر - 32 صالة، في كلِّ صالة العشرات وأحيانا المئات من دور النشر، بكل لغة وفي كل فنٍّ.

❖ دخلنا أولا صالة الأطفال، وهو جناح كبيرٌ جدًّا، يدل بمحتوياته أنَّ للطفل في إيران مكانة مرموقة ومعتبرة، وأنَّ العناية بتعلمه باتت أولوية، ولا أدلَّ على ذلك من الحجم الهائل للمنتَج، ومن الإبداع المميَّز لهذا الإنتاج، وكذا يدل عليه توافدُ الناس زرافات ووحدانا لاقتناء كتاب، أو شريط، أو ملصقة تربوية...

❖ ثم قصدنا صالة الكتب العربية، بل الأجنبية مِن بينها العربية، وكان

فيه من الدول عدد معتبر، وهي: كندا، قبرص، مصر، فرنسا، الكويت، الهند، العراق، إيطاليا، اليابان، المانيا، فلسطين، سويسرا، إسبانيا، سنغافورة، السعودية، تونس، بريطانيا، أمريكا، الأردن، سوريا، عمان، هولندا، الباكستان، تركيا، ماليزيا، ليبيا، الإمارات وقطر.

وفي جناح عُمان، وجدت ضمن الكتب مؤلفاتٍ من تحقيقنا في المغرب، بالاشتراك مع ثلة من الباحثين؛ مثل: التاج على المنهاج، وتيسير التفسير... كلها من منشورات وزارة التراث في سلطنة عمان، وهكذا يُسافر الفكر، وتؤثر الكتابة... وينفع العلم، بإذن من الله، من يعرف المؤلف ومن لا يعرف.

❖ وفي أجنحة الفكر والفلسفة، والتاريخ والحضارة، والأدب والعمارة... بهرَتنا النهضة العلمية بإيران، فعدد الموسوعات في مختلف الفنون تعدُّ بالمئات، وجَوْدة الطباعة لا تضاهَى، وتعدُّد العناوين ينِدُّ عن وصفه اللسان (33 ألف عنوان)، وجدَّة الطرحات... وعمقُ الموضوعات... كل هذا جعلني اليوم أعتبر أنَّ إيران لا تقارَن بأيِّ دولة عربية، لكن علينا أن نقارن بين الدول العربية مجتمعة (من جهة)، وإيران لوحدها (في الكفَّة الأخرى)... ولعل إيران تفوق وتتفوَّق...

أمَّا العناوين المستهلَكة، التي ألِفنا أن نراها بكثرة في المعارض الدولية بالبلاد العربية، مثل: تفسير الأحلام، وألف ليلة وليلة، وحكايات الخرافات... فلم نرها بنفس الكثرة في معرض إيران الدولي...

وما أثار الانتباه بحقٍّ، هو تلكم الحرية المطلقة في الفكر، ونلمس ذلك من العناوين الكثيرة جدا، في مواضيع مختلفة ومتباينة، بلا حجْر ولا منع...

لكننا تأسَّفنا مِن غياب بلدنا الحبيب (الجزائر)، رغم أنَّ الإيرانيين يحبُّونه ويحترمونه... ومن قبلُ شاركنا في معرض عمان الدولي، باسم جمعية التراث، مسجِّلين غياب دور النشر الجزائرية جميعها... فهل ثقافة الغياب تخدم وطننا، وتنشر فكرنا، وتؤثر في غيرها، وتهبُنا الحضورَ الفكريَّ والحضاريَّ؟

...هل من مجيب؟

❖ ومن أبرز ما يثير الانتباه في المعرض، نُضيف ما يلي:

- الإقدام الشديد على الكتاب، من قِبل عشرات (أو مئات) الآلاف من الناس، بمختلف الأعمار والمستويات، مدارس وعائلات، وجماعات وأفرادا.

- إيواء المئات من الناس إلى الظلّ، وبخاصّة الشباب منهم، وفي أيديهم كتبٌ اشتروها، يطالعونها بنهم وشره، دلالة على اغتنام الوقت وحبِّ العلم.

- لم نشاهد إنسانا واحدا يتسوَّل، بخلاف دول أخرى، يصنع فيها التسول المشهد اليوميَّ للبلاد.

- لا نلحظ مظاهر للفساد الخلقي، مثل فوضى الشباب، وتجاوزات المراهقين... أو غيرها. وكأنَّ الناس ربوهات عمَّالة، لها اهتمامات معتبرة... همُّها تحقيق حلُم إيران: أن تكون من أقوى دول العالم عددا وعُدَّة، وأن تنصر الإسلام شرقا وغربا.

- لا نلاحظ أيّ رقابة أمنية مشدَّدة، ولا شرطة تضبط النظام، ولا حواجز أمنية في الطرقات، فالأخلاق هي التي تزع الناس إلى الخير، والأخلاق هي التي تردعهم عن الشرِّ...

❖ لم نغادر المعرض إلا في الخامسة بعد العصر،[4] وكانت الوجهة إلى سفح جبل قريب، ومنتزه جميل؛ وفي الطريق يُسبيك جمال التصميم، والخضرة على حافتي الشارع، وخريرُ المياه الجارية في سواقي بديعة، وهكذا الحال في أغلب طرقات طهران... مع نظافة لا يمكن وصفها إلاَّ بالمعيانة، ونزوع الناس إلى العمل بلا كلل ولا عياء...

وقد مررنا بمجمع فيلات تسكنها العديد من الشخصيات المرموقة في إيران، منهم الرئيس السابق، المفكِّر: محمد خاتمي، الذي عرفته مِن خلال جملة من مؤلفاته التي طالعتها، منها: الدين والفكر في فخ الاستبداد، والديمقراطية وحاكمية الأمة، وحوار الحضارات...

❖ لمَّا وصلنا إلى المكان، صِرنا في عالم آخر من جمال الطبيعة، ومِن رقيِّ الخدمة، وبديع الصنع، والإتقان في الصَّنعة... منها مطاعم تقليدية وأخرى حديثة، يُزين المحيط خرير مياهٍ تنزل من قمَّة الجبل، لذوبان الثلج ... فالجبال في طهران عالية بحيث تجمع العين متناقضين هما: طاقية من الثلج فوق القمم، وشمس محرقة في السفوح...

فضَّلنا الجلوس في صالون تقليدي فاخر، تُدغدغنا زقزقة الطيور،

4 للاطلاع على قائمة الكتب التي اقتنيناها، انظر- الملحق 01.

ويطوف بين الحضور أندال طيبون، يوزّعون أشهى المطاعم والمشارب والذُّها، حامدين الله وشاكرين... وأعظم الحمد أنها - إن شاء الله - من حلال وفي حلال، لا يشوب محيطَها كدر من خمر أو فسق أو عُري أو معصية... ومن المثلج للصدر حقا أن تقرأ شعارا جميلا كتب عليه بالفارسية: «احترم المقام باحترامك للحجاب».

❖ دار بيننا حوار في مسائل ومواضيع تراوحت بين التاريخ والشعر، والعقيدة والحضارة، والسياسة والإعلام... كلٌ أولئك مع مُلح وطرف عفيفة...

❖ ومما طالعناه سويا، من كتاب «إيقاظ العلماء وتنبيه الأمراء»، لأحمد عبد الله الكوزه كناني، نقرأ:

- «والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة، إنه ما اختلف أصناف كون من الأكوان، اختلاف نوع الإنسان».

- «لكل فرعون موسى، ولكل إلى مستقرِّه حركة، وبإزاء كلِّ درجة دركة».

- «إنَّ من أهل الشقاء من يتوغَّل في الخفاء لتوغُّله في الشقاء».

- قال الإمام علي كرَّم الله وجهه: «قصم ظهري اثنان: عالم متهتِّك، وجاهل متنسِّك».

اليوم الثاني:

صلاة الجمعة في طهران

كان يوما مشهودا، وعيدا موعودا، ولحظات تاريخية سعيدة، وجولات فكرية عتيدة... ذلك أنَّ العين تلتقط مناظر ومشاهد لم يُسبق لها أن عاينتها، والأذن تسجِّل كلمات وعبارات ومعاني لم تألفُها... ثم إنَّ العقل ليحلِّل ويقارن... وأخيرا يكتشف عجزه؛ لأنه لا يفهم ما يقال، لاختلاف اللغة، رغم أنَّ ما قيل يقينًا كان بليغا وعميقا...

❖ بعد حوار ذيَّل فطورَنا حول كيفية الاستفادة من هذه الأسفار لخدمة أمَّتنا وبلدنا، ولجلب النفع لأهلينا ووطننا... توجَّهنا وجهةَ جامعة طهران، المكانَ الوحيد الذي تقام فيه صلاة الجمعة بطهران، وفي كلِّ مقاطعةٍ جُمعة واحدة لا ثاني لها، توحيدا للخطاب، وإمعانا في معاني القيادة والمرجعية... وليس ببعيد من نزلِنا أبصرنا زرافات من الناس قاصدين المسجد، ثم مَررنا بساحات وشوارع غاصَّة بالمصلين، ثم تخطينا حواجز أمنية بها شباب يفتِّشون كلَّ مصل، ويمنعون أبسط شيء يحمله، فيودِعونه في المدخل إلى غاية الانتهاء من الصلاة، حتى ولو كان آلة تصوير، أو هاتفا محمولا، أو محفظة صغيرة...

ثم فجأة رأينا حشدا هائلا، داخل ساحة مغطَّاة، وكأنَّها ملعب كبير، وبعيدا عنا كان الخطيب، السيد حسين كاشاني، يلقي درسا باللغة الفارسية، يشرح فيه أحاديث نبوية، كما علمنا بعد من آل طه؛ لأننا لم نفهم شيئا البتة، إلا الآيات أو الأحاديث التي يقرأها بالعربية...

وأوانها كان يدخل زعماءُ إيران الواحد تلو الآخر، ولم نتمكن من رؤيتهم لبعد المسافة بيننا، وللحماية الشديدة المحاطة بها، ولقد كان منهم: محمد خاتمي، ولعل أحمدي نجاد كان هنالك... وغيرهم كثير ممن نعرف أو لا نعرف.

أمَّا خطبة الجمعة فكان موضوعها، كما هي عادة خطب الجمعة في إيران - حول قضية الساعة: العلاقة بين إيران والغرب، ومستجدَّات قضية

السلاح النووي، فأكّد على عزم إيران على المضيّ قدما في تطوير الصناعة السلمية للطاقة النووية، ونددّ برغبة الغرب الظالم في تحطيم أملها... وكان الخطيب هادئا، واثقا مما يقول، وديعا، جالبا لأنظار المصلين، شادا أسماعهم إليه، دافعا إلى التركيز... بحيث لا ترى أحدا منشغلا عن السماع...

وكانت الهتافات تتعالى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كلّما طُلب منهم، محدثةً دويًّا شديدا، كأنه بحر هادر الموج متلاطمها... وأوان الدعاء رفع الناس أيدي بعضهم تعبيرا عن النصر، فاضطررتُ وأنا لا أفهم شيئا أن أمدّ يدي لجباوري فرفعها وهو يهتف، وأنا لا أعرف... إلاّ أننا مؤيّدون لنصرة الدين جميعا، قد نختلف في الشكل ولكننا نتفق في المحتوى...

وللأسف لم نفهم من الصلاة شيئا:

- لم نعرف حدَّ الدرس وحدَّ الخطبة.
- لم نفهم ما يقال في القُنوت.
- لم نفهم ما قيل في الدعاء الجماعي.
- ثم إنهم صلوا العصر مباشرة بعد الجمعة، ولم نعرف ذلك...

كلُّ هذا دفعنا إلى إعادة الصلاة، ذلك أنَّ الصلاة من شروطها النيةُ، وإنك لا تستطيع أن تنوي شيئا لا تفهمه ... [5]

والأسئلة المحيرة دوما هي:

- من منَّا على حقٍّ، ومن منَّا على خطإ؟

- هل هذا الاختلاف اختلاف شكل، أم هو اختلاف محتوى؟

- ما مدى معرفتنا بفقههم ومعرفتهم بفقهنا، حتى يتم الحكم بدليل؟

- هل سيأتي اليوم الذي يلتقي فيه المسلمون على صعيد واحد، إخوانا موحّدين وموحِّدين، يتناسون اختلافاتهم ويجتمعون في الانتصار على عدوِّهم؟

- أم أنَّ مصيرنا هو الاختلاف والخلاف من لدن السقيفة، والجبل، وصفين... إلى قيام الساعة؟

---

5 عن الصلاة وراء المخالف في المذهب الإباضي، نأخذ بفتوى القطب اطفيش، التي تؤسس على روح الوحدة بين المسلمين، وفي ذلك يقول: «وصحّت خلف مخالف، إن لم يدخل فيها مفسدا لها، لا خلف منافق موافق»، أي أنّ الصلاة وراء من يظهر نفاقة ومعصيته لا تجوز (شرح النيل، ج2/ص218)

للعلم فإنَّ الأذان عند الشيعة الإمامية يضاف إليه استحبابا:

بعد التشهد: «أشهد أنَّ عليا ولي الله، أشهد أنَّ عليا حجَّة الله». ثمّ في الأخير قبل التكبير يضاف: «حيَّ على خير العمل، حيَّ على خير العمل».

❖ وجهة دوماوند: علمتُ من البحث في الأنترنات - قبل السفر - أنَّ في القرب من طهران جبلا يسمَّى «دماوند» ، يبلغ ارتفاعه 5627م، مما يجعل من قمَّته الأعلى في غربي آسيا وأوروبا، فطلبنا بعد صلاة الجمعة، من السيد آل طه أن يخصِّص هذه الأمسية لزيارة هذا المعلَم الطبيعيِّ.

خرجنا من النزل نحو سلسلة جبال جميلة، وهي من المنتزهات التي يستقلها الإيرانيون في العطل، فالآلاف من العائلات تخيم على ضفاف الوادي، تدير كؤوس الشاي بعد الغَداء، في جو بهيج، لطالما حرمنا منه في بلادنا في سنوات عشر عجاف، ولقد تحسَّن الوضع الآن، ندعوا من الله المزيد...

لكننا أحيانا نُحرم من مناطق للاصطياف جميلةٍ، وما ذلك إلاَّ للمعصية التي تغمرها، وبخاصة الشواطئ وبعض الغابات...وأحيانا أخرى نُحرم بسبب انعدام وسائل استغلالها، وما جبال الشفَّة، وبعض المناطق الجبلية الرائعة، وحمام الوان، وسواحل جيجل... وغيرها منا ببعيد، فهي جميلة رائعة، لكن لا أحد استثمرها الاستثمار الحسن اللائق والمشرِّف.

❖ في مطعم كبير، يأوي العشرات من الطاولات، جلسنا في هناء وراحة للغداء، وتناولنا وجبات محلية وأخرى عالمية... فالحمد لله على نعمائه وآلائه، شاكرين مضيفَنا الكريم آل طه على سخائه وكرمه الحاتمي، الذي فرض علينا طوقا منعنا به عن الإحساس بالغربة وبالبعد عن الأهل، فجاد وأجاد.

ومن مواضيع جلستنا، الحديثُ عن زواج المتعة في إيران، والسؤال عن حقيقته، وعن حقيقة العائلة والعلاقات الأسرية... مع شيء من الطرفة الذكية العفيفة، التي لا تخدش الحياء، وحمدنا الله لما علمنا أنَّ الفساد منحسر في إيران، وتأسَّفنا لكون بعض دول الجوار باتت محطَّات للمتاجرة في النساء، فهم يعملون على تهريبهنَّ مثل الغنم أو أذلَّ، وهؤلاء النسوة غالبا من أفغانسان، وإيران، وتركيا... فاللهمَّ احفظ كرامة نساء المسلمين.

ثم تناولنا، خارج المطعم، كأسَ شاي، بلا نعناع؛ لأنهم في إيران لا

يستعملون النعناع للشاي، وإنما يستعملونه لتحضير اللبن (لبن عَيران)، ولبعض الوجبات...

❖ وبعد ذلك قصدنا جبل «دماوند» والكلمة تعني بالفارسية: المدينة الباردة؛ لأنَّ الجبل سمي باسم المدينة، فهو يقع في ضواحيها... فكان طريقنا صعب المسالك، قريبَ المهالك، وقد كثرت السرعة والكبح للفرامل في مسير السيارات... فاستغرق منا الذهاب والإيابُ حوالي ستِّ ساعات، وبخاصة حين الرجوع، حيث الزحمة في الطريق بشكل قلَّ له نظير... ويبدو أنَّ السبب هو الأشغال الكبيرة في الطرقات السريعة التي مررنا بها...

❖ وكانت لنا حادثة في قرية صغيرة، توقَّفنا بها لنصلِّي المغرب والعشاء جمعا وجماعة، فصلينا كما أراد الله تعالى، آملين القبول منه وحده... لكن، بعد الخروج اكتشفنا أنَّ حذاء أحدِنا سرقت، فأربك الجميعَ أمرُه، ومال الكل إلى المزاح والنكتة، حتى لا يتحوَّل الجوُّ إلى قلق أو غضب، وهكذا شأنُ المسلم لا يسارع إلى الغضب في أمر دنيويٍّ، بل الغضب منه يكون إذا انتُهكت حرمات الله...

فسافر صاحبُنا بدون حذاء، وقد اقترحتُ أن نسمي الرحلة بعنوان: ساندريلو إيران، فاقترح آل طه: ساندريلو دماوند... إشارة إلى قصَّة ساندريلا التي فقدت حذاءها، فكان سببا لسعادتها وزواجها بأمير البلد... لكنَّ أميرنا الفاقد لحذائه، بحمد الله، سعيد مع أميرته... اللهمَّ أدم يسرهما وذريتهما دنيا وآخرة.

ومن الطريف حقًّا أننا في الإياب، كنَّا نسمع درسا في راديو طهران لتعليم اللغة الفارسية، وموضوعه: «شراء حذاء جديد»... فشاء الله أن نطبِّق وننفِّذ الدرس واقعا (منهج بحوث الفعل)، ولله في شؤون الحياة حِكم وعبرُ.

نوم لذيذ... بعد تعب شديد...

اليوم الثالث:

في أكاديميا علوم القرآن

كان الاتفاق على أن نفترق في هذا اليوم – يوم السبت – فريقين:

أمَّا اثنان منَّا فوجهتهما إلى العمل، وإلى لقاء آل طه، وزيارة الشركات، وإبرام الاتفاقات...

أمَّا ثلاثتنا فاخترنا التفسُّح في البلد، بحثا عن متحف قرأتُ عنه في الأنترنات، فأخذنا طاكسي، بعدما أعلمناه أننا نريد مشاهدة «مِزيُوم»، فلم يفهم ما نريد إلاَّ بجهاز صوتي مترجِم... وأخيرا فهِم...

وبعد دقائق وصلنا إلى المتحف الوطني (بالفارسية: مِلِّي)، وهو عبارة عن بناية شامخة، متربِّعة على مساحة خضراء زاهية، أمام فوارات للمياه تُسبي الأنظار، ثم بمبلغ زهيد لا يتعدَّى أربعين دينارا جزائريا، دخلنا المتحف، جناحَ ما قبل الإسلام، وللأسف كان جناح الحضارة الإسلامية مغلقا منذ ثلاث سنوات بسبب أشغال الترميم...

فشاهدنا حضارة إيران من العصر الحجري إلى البرونزي إلى ما بعد ذلك... مِن أوانٍ، وأثاث، وبقايا تحف، ومجوهرات، وبقايا عظام، ومجسَّمات... مما يوجب توحيدَ الخالق رؤيتُه، فهو الوحيد الذي لا يفنى وتفنى الخلائق، وتبيد الحضارات الواحدة تلو الأخرى، وهو حي دائم لا يموت سبحانه

«كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (الرحمان 27-26).

تُرى، بعد ألف سنة ويزيد، بل بعد مائة سنة ولا يزيد، سيدخل عصرنا متحفَ الحضارات، فهل سيبقى أثر أو صنعة أو فكر أو تاريخ أو علوم من إبداعنا، أم أنَّنا سنكون في عداد العدم لتخلُّفنا، ولاعتمادنا كلية على جهود الآخرين؟ فلا النظريات، ولا القوانين العلمية، ولا

الإبداعات المنهجية، ولا السيارات، ولا الأدوية، ولا المحركات، ولا الكمبيوترات... لا شيء من ذلك من اختراعنا... يقول تعالى:

«إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ» (يس 12).

فأين آثارنا؟ وأين ما قدَّمنا؟ وأين ما أخَّرنا؟

اللهمَّ ارزقنا التوفيق والهداية، وسدِّد خطانا وخطواتنا...

ومما أثار انتباهنا في المتحف، أولئكم السواح - من فرنسا - وقد جاءوا من بلد «ساركوزي»، المانع للبس الحجاب في المدارس، وقد أرغموا هنا على «الفولار»، احتراما لحضارة أطاعت الله، وإرغاما لأنف مدنية أعرضت عن سبيل الله... فاللهمَّ أرنا في أعدائك معجزاتك، آمين.

واللهمَّ إنَّ بناتنا قد أهنن في المهجر، ونُزع حجابهنَّ ظلما وعدوانا، فكن لهنَّ وليا، يا نعم المولى ويا نعم النصير...

❖ خرجنا من المتحف، وارتحنا قليلا، ثم سرنا وجهة أكاديميا رأينا لافتتها في الذهاب، وعيَّنا مكانها، ثم بحمد الله وصلنا إليها، وهي: أكاديمية علوم القرآن.

بعد مدَّة من الانتظار استقبلنا بعض الطلبة، وكان من بينهم من يعرف بعضا من اللغة العربية، فتحادثنا طويلا، وتبادلنا العناوين، وعرفنا اهتماماتهم وإشكالاتهم، فمنهم من يحضِّر رسالة الماجستير في شعبة علوم القرآن، ومنهم من يحضِّرها في شعبة التفسير، وهما الشعبتان اللتان تدرَّسان في الأكاديمية.

وفي الأكاديمية المئاتُ من الطلبة ذكورا وإناثا، منهم من هو في التدرج، ومنهم من تخطاه إلى ما بعد التدرج... وهي على شكل بناية ضخمة، كأنها جامعة كاملة المعالم، بها مكاتب إدارية كثيرة، وموظفون يُعَدُّون بالعشرات، وأساتذة جامعيُّون لكلٍّ منهم مكتبه الخاص به... وفيها مطعم، ومصلًّى، ومرافق أخرى.

وبعد برهة من الزمن أعلمونا أنَّ رئيس الأكاديمية في انتظارنا، فدخلنا مكتبا فاخرا، ثم تخطيناه إلى قاعة للجلسات جميلة، مهيأة وفق أحدث المقاييس، وكان فيها الرئيس في انتظارنا، لابسا الثياب الرسمية للعلماء في إيران، ولكل لون من ألوان العباءة أو البردة دلالة خاصة، حسب الدرجة العلمية...

جلسنا إليه مدَّة، لكنه أعلمنا أنه يقرأ ويكتب بالعربية، ويصعب عليه أن يتحدَّث بها بطلاقة... فنادى شابا، هو المترجم الرسمي للمعهد، خرِّيج معهد الأدب العربي... فكان الحوار حول المصادر والمراجع المعتمدة في الأكاديميا... غير أنهم للأسف لم يفيدونا كثيرا، وركَّزوا على مصادر التفسير المعروفة لدينا... ولم نعرف هل الخوف هو الذي دفعهم إلى هذا الشحِّ في المعلومات... وبخاصة أنهما فجأةً أوقفا مسار الجلسة، وأعلمانا أنَّ العلاقات الخارجية ليست من صلاحياتها، بل من صلاحيات مجمع التقريب بين المذاهب، فودَّعانا على عجل...

وفي مكتب المترجم، الدكتور بهروز حسن نزاد (بزاي مثلثة)، قال لنا إنه مترجم للأدب العربي إلى الفارسية، وإنه ترجم مؤلَّفات جبران خليل جبران، في سبعة أجزاء... وترجم كتابا لأبي القاسم الشابي، فأهدى إلينا كتابين لجبران، وكتاب الشابي... وهو كذلك، رئيس قسم الإدارة في دار للنشر... غادرنا الأكاديميا، وكلنا اتساؤلات وإشكالات لا حدَّ لها ولا حصر [6]

6 رئيس الأكاديمية الدكتور الراغبي عنوانه الالكتروني: raghebi@uqa.ac.ir

موقع المترجم (دكتر بهروز حسن نزاد): www.colbe-m.com

صفحة أحد الطلبة: www.mohman.blogfan.com

اليوم الرابع:

في المكتبة الوطنية (كتابخانه ملي)

كانت نيتنا من الليل أن نستقلَّ سيارة أجرةٍ وجهة المكتبة الوطنية، لكن بحمد الله تعالى وحسن توفيقه، هاتفَنا آل طه قبيل مغادرتنا النزل، وآسَرَنا باهتمامه وكرمه، وقال إنه سيأتي إلينا ويأخذنا بنفسه إليها، ثم يواصل الطريق لإتمام أعماله التجارية...

لكن ما إن وصلنا المكان، وكان خلف «موزيه ملي» الذي زرناه من أمس، حتى وجدنا الأبواب موصدة، ودلائل هجرانه بينةً... فما كان منه إلا أن هاتف رقم 118، وهو رقم للخدمة، به تطلُب رقم الهاتف لأيِّ مؤسسة أو شركة أو شخص تبحث عنه... فجاءه الجواب من إدراة المكتبة أنها تحوَّلت إلى بنايتها الجديدة منذ زمن... ولم يتوان الكريم، بل عيَّن موظفه عامر ليأخذنا إليها، وهي بعيدة نسبيا...

وصلنا إلى المكتبة الوطنية، فرأيناها تحفة في الجمال والإبداع، آيةً في العمران وتخطيط الحدائق، انبهرنا بها وحاولنا التقاط الصور، غير أننا علمنا أنَّ ذلك ممنوع... ورغم أنَّ أحدَنا قد صوَّر الشكل الخارجيَّ، غير أنَّ المصوِّرة للأسف لم تلتقط أيَّ صورة، وتوقَّفت كما يتوقَّف حمار الشيخ في العقبة، وهي من أحدث آلات التصوير... ولم ندر ما السبب...

بعد إجراءات الدخول التي ساعدنا فيها عامر، تكرَّموا علينا بإمكانية استعمال المكتبة ليوم كامل... وفي قاعة الفهرست ودَّعنا عامرا، وشاهدنا باحثين كثيرين وراءَ أجهزة الفهرست يبحثون عن عناوين، ثم يطلبونها، وتأتيهم بوسائل إلكترونية عالية الجودة (وكأنها سواقي للمياه، غير أنها تحمل الكتب من قسمٍ إلى آخر، حتى لا يحمل الكتاب أحد بيده إلا ليضعها في الساقية أو في الرفِّ)...

كلَّمناهم فلم يفهمونا، وطلبنا مَن يتحدث العربية لنتخاطب معه... فوفَّقنا الله إلى أن تعرَّفنا على طالبة متربِّصة تدرس في علم المكتبات... وهي في دورة

تطبيقية في المكتبة، عِراقية الأصل، كردية مسلمة، فكانت لنا نعم المترجم ونعم المعين، ونعم الدليل والمرشد الأمين.

بدايتنا كانت مع الفهرست...

اولا- بحثن - أي الموظفات - عن اسمي في الفهرست «باباعمي»، للتعرف على الكتب الموجودة في المكتبة، إن كانت، لأني أحضرت لهم هدايا من إنتاج جمعية التراث، ومكتب الدراسات، ومعهد المناهج، فأردنَ أن يعرفن هل في المكتبة مثلها، أم لا.

تفاجأت المسؤولات كلهنَّ، وسُررن أيما سرور لمَّا رأينَ عددا من العناوين التي أنجزتُها في المكتبة، سواء مما أُلفت أو حقَّقت... وكم كانت فرحتهنَّ وكأنَّ أمرا عظيما حدث... فكانت فرحتنا أكبر، لأننا حمدنا الله على هذا التأثير الذي حمل العلم من بلدنا إلى بلاد فارس، بتوفيق منه تعالى... والكتب الموجودة مسبقا هي:

❖ معجم أعلام الإباضية، ومفهوم الزمن (طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت)، من تأليفنا... والتاج على المنهاج للسالمي، والدينونة الصافية لعمروس بن فتح، من تحقيقنا رفقة الباحث مصطفى شريفي، والثاني ساعدنا فيه الباحث الحاج أحمد كروم (نشر وزارة التراث في عمان).

ثانيا- بحثنا عن مادة «الإباضية» (اباضيه بالفارسية)، واهتدينا إلى نيف وعشرين عنوانا، أغلبها من منشورات وزارة التراث بعمان، بعضها باللغة الفارسية، وكم أنا مشتاق للحصول عليها، وقد طلبت من آل طه أن يشتريها لي مأجورا، وأهمها حسب تقديري عنوانان الأول في نقد الفكر العقدي الإباضي من تأليف جلالي مقدم، والثاني عن العلاقات بين عمان وإيران تأليف عرب محمد.

ثالثا- البحث عن مادة «الزمن والوقت» جادَ بعشرات العناوين، طبعتُ فهرسة بعض منها فقط...

فكان جملة ما طبعن لي باللايزر 13 صفحة، بلا مقابل، ونحن نشكر هذا الفريق الجاد حُسنَ استقباله، ودقَّة عمله... وعلمنا أنَّ البحث الفهرسي في المكتبة ممكن في موقع الأنترنات: www.nlai.ir. ... ثم إني بعد العودة،

ومن مكتبي في الجزائر استطعت أن أبحث في فهرس المكتبة بسهولة، فما أعظم تطور هذه المكتبة، وما أفيد التكنولوجيا حين تُستخدم في مكانها.

ثم توجَّهنا إلى قسم المبادلات، فسلَّمت عددا من أعمالنا ومؤلفاتنا هدية للمكتبة في تسعة عناوين، هي:

❖ دورية الحياة، وأصول البرمجة الزمنية، ومطارحة معرفية، وملخصات البحوث، وترياق الحائر، ومقاربة منهجية، وحدد غايتك، ورحلة الرصاص، ومطوية أ. د. أبو القاسم سعد الله.

وتسلَّمنا من مسؤولة القسم، وكانت متحجبة حييَّة، رسالةَ عرفان واعتراف بالهدية، مكتوبة بلغة إنجليزية دقيقة، وبخط جيد...

أخيرا، غادرنا المكتبة الوطنية، وكلنا امتنان وشكر للقائمين عليها، على حسن الضيافة والاستقبال والعناية...

❖ طلبنا بعد ذلك «مجلس الشورى الإسلامي»، قاصدين دخول مكتبته، فلمَّا وصلنا إلى بابه وجدناه محروساً حراسة شديدة، ولا يكون الدخول إلاَّ بإجراءات أمنية مشدَّدة، فالبناية راقية، تأوي مرجعيات البلد، وهي تحفة في العمران، تحيط بها حدائق ذات جلال وجمال، وخضرة تبهج الناظرين...

فما كان منَّا، إلاَّ أن غادرنا المكان، دون تحقيق الهدف، وفي الجوار وجدنا محلات للبطاقات «card»، وهو مجال تخصص أحدنا، فكانت له محاورات مع أصحابها، فقارن وحلَّل، وأعطى ملعومات دقيقة واستنتاجات أملتها عليه خبرته في المجال لأكثر من عقد ونصف عقد من الزمان... أمَّا نحن الاثنان، فكنَّا جاهلين تماما بالميدان، ولكلٍ منا تخصُّصه واهتماماته...

سبحان مقسِّم الأذواق والأرزاق... وواهب المعارف والخبرات.

اليوم الخامس:

في مدينة قم

في الساعة الأولى من الصباح، أخذنا آل طه في سيارته «camry» إلى مجمع التقريب، وتأسَّف مستقبِلنا على أننا لم نَضبط موعدا مسبقا، غير أنَّ آل طه ألحَّ عليه، حتى افتكَّ لنا موعدا ليوم غد إن شاء الله تعالى، على الساعة العاشرة صباحا، مع مسؤول في المجمع.

وبجوار المجمع، زرنا متحف الشهداء، يحوي ملابس وأدوات الشهداء بعد سقوط شاه إيران سنة 1979م، ثم في الحرب ضدَّ العراق، أي حرب الخليج الأولى...[7]

وفي المتحف صور حية مؤثِّرة جدا، تحكي محنة قتل المسلمين لإخوانهم المسلمين، بأبشع الطرق، حتى بلغ عدد الضحايا مليون شخص... من بينهم علماء بمرتبة آية الله، ودكاترة، وطيارين، وأطباء، وجنود... أغلبهم مات ضحية عمليات اغتيال وقنابل لمدَّة ثلاث سنوات كاملة 1981-1979م... ومِن أبرز هؤلاء الضحايا عالم يسمى: آية الله مرتضى مطهري، صاحب تآليف كثيرة، تجاوزت ثمانين عنوانا في الفكر والفلسفة، والفقه والعقيدة، والتفسير...

❖ خرجنا من المتحف واشترينا بعض المقتنيات التقليدية للهدايا، ثم عزمَنا آل طه، كعادته في الكرم الحاتمي، إلى غداء في «رستورون» (بالفارسية)... يسمَّى مطعم سفينة «سندباد البحري»، زُخرِف على شكل سفينة، والعمَّال فيه يرتدون لباس البحَّارة... تناولنا غداءنا وحمدنا الله على نعمائه، ودعوناه

7 الحرب العراقية الإيرانية و تسمى أيضاً بحرب الخليج الأولى أو ما يسمى بالفارسية (جنگ تحميلی) أي الحرب المفروضة وسميت من قبل الحكومة العراقية باسم قادسية صدام ، كانت حرباً بين القوات المسلحة لدولتي العراق وإيران واستمرت من سبتمبر 1980 إلى اغسطس 1988. اعتبرت هذه الحرب من أطول الحروب التقليدية في القرن العشرين وأدت إلى مقتل زهاء مليون شخص من الضحايا وخسائر مالية تقدر بحوالي 1.19 ترليون دولار أمريكي.

وقد غيرت الحرب المعادلات السياسية لمنطقة الشرق الأوسط وكان لنتائجها أعظم الأثر في العوامل التي أدت إلى حرب الخليج الثانية أو ما سميت بعاصفة الصحراء في 1991.

أن يجازي المضيف عنَّا أحسن الجزاء...

❖ عدنا إلى النزل، ونمنا نومةً خفيفة، ثم صلَّينا الظهر والعصر جماعة، وسرنا بعون من الله رفقة عامر بسيارة آل طه وجهة مدينة «قم» التاريخية، والمسافة بينها وبين طهران حوالي 130 كلم.

أوَّل ما بهرَنا ذلكم الطريق السريع المدفوع الأجر، بمقاييس عالمية عالية، لا تملك العديدُ من الدول نُصيفها، داعين المولى أن ييسِّر طريق شرق-غرب في الجزائر، لنستدرك بها بعض التأخر الذي يميزنا في النقل... (وكذا مترو الجزائر، ذلك أنَّ لهم شبكة ميترو راقية في طهران).

لكنَّ الذي يصعب أن نستدركه، هو ذلكم الاهتمام البالغ بالخضرة وبالتشجير، فحدائق إيران داخل المدينة وخارجها مدهامَّة، وعلى جنباتها في الغالب عيون نضَّاخة... علمنا من عامر ومن آل طه أنَّ الإيرانيين يحتفلون بعيد الربيع، بغرس الأشجار، وبالعناية بالورود، وبتربية الأسماك الحمراء لتُهدى في ذلك اليوم... وبذلك حوَّلوا بلدهم إلى جنَّات فوق الأرض، بحسن صنِيعهم... فهل في الإمكان أن يكون عيد للأشجار بحقٍّ في الجزائر؟

لعلَّ التربية والتعليم كفيلةٌ بذلك... ولعلَّ دفع تلاميذ «المدرسة العلمية» إلى هذا العمل الحضاري، وتربيتهم عليه، سيحلُّ بعض المشكل محليا، وقد يفتح الله لنشر ذلك وتعميمه وطنيا...

❖ وصلْنا إلى قم، بعد ساعتين تقريبا، وقصدنا المعصومة بلا معتقد للزيارة، كما هو الشأن للملايين الذين يزورونه من مختلف أنحاء العالم، بنيَّة التبرك والزيارة، وبنية الدعاء بالشفاعة... وإنما قصدُنا هو السياحة وفقط، والتحقُّق مما يقال عن مثل هذه المقامات في الإعلام... وإن كنَّا ممن يحبُّ آل بيت محمَّد صلى الله عليه وسلَّم، ويحترم بُضعته عليه السلام.

المقام كبير جدا، يعدل في حجمه المساجد الكبرى، مثل المسجد النبوي في المدينة المنورة، بل إنه شبيه به... الرجال والنساء مع بعض، مثل الحرم، إلاَّ في أماكن الازدحام، مثل قرابة قبر المعصومة «السيدة فاطمة بنت الإمام موسى الكاظم»، أين يتمسح الناس بأيديهم على أطرافه المزركشة، ويدعون متأثرين، ولا يدخلونه إلاَّ بعد قراءة دعاء الاستئذان للدخول إلى بيت

النبي صلى الله عليه وسلم ...[8]

شرح لنا عامر جملةً من المعتقدات التي بها يتخذون آل البيت وسيلة إلى ربِّ الجلالة، مع ملاحظة انحراف العامَّة - كما قال - عن الجادَّة في كثير من الأحيان، بما لا يجوز في دين الله... وقال: إنَّ العلماء حاربوا هذا الانحراف، ولكنَّه متوغِّل في المجتمع... فتذكَّرت قبور الأولياء في بلادي، ودَوْر جمعية العلماء في محاربة تبعاتها العقدية... ومع ذلك فإنَّ التصوف والاعتقاد في كرامات الأولياء ضارب جذوره في معتقدات بلداننا... بكل الأطياف وفي جميع المذاهب.

❖ من مكتبة المقام اشترينا كتبا كثيرة، للتعرف أكثر على فكر الشيعة، وعلى معتقداتهم، من مصادرهم لا من مصادر غيرهم... وما أضرَّ العالم الإسلاميَّ اليوم إلا الحكمُ على الخصم من خلال خصمه، والإعراض عن مصادره، وتحميله ما لا يحتمل، وتقويله ما لم يقله... نعوذ بالله من أن نظلم أحدا، أو أن نجهل على أحد... فاللهمَّ ارزقنا الإنصاف مصداقا لقولك:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»

(المائدة: 08)

❖ في طريق العودة توقَّفنا في محطَّة للاستراحة، وإنها لتدل على رقيِّ البلد، وليست مختلفة عن أجمل المحطات في أكثر بلاد العالم تطورا... محطة كبيرة، جميلة، مخضرَّة، بها ألعاب للأطفال، وقاعات للعائلات، ومكان للصلاة، ومطاعم، ودكاكين... فشربنا كأس شاي، مع مَحاور في مواضيع تتعلق بالعراق وبإيران...

ثم دخلنا الغرفة على الساعة 9:50 ليلا، منهكين، متعبين، فصلينا العشاءين جماعة، واستسلمنا لنوم عميق، يسَّر لنا لنا سبل العودة إلى أهلينا وبلدنا، سالمين غانمين إن شاء الله

---

8 لم أفهم هذا الفعل إلا بعد قراءتي لكتاب عن حياة المعصومة، كما يسمونها، وفيه رواية لأحاديث جاء فيها عن ابن الرضا: «من زار قبر عمَّتي بقم فله الجنة»، وعن الصادق «أنَّ زيارتها تعدل الجنَّة»، وفي الكتاب: «وكم من المحتاجين يسَّرت حاجاتهم، وكم من المرضى نالوا الشفاء، بفضل كريمة أهل البيت...» ثم في حديث عن الصادق: «إنها تدخل كل شيعتنا الجنَّة بشفاعتها». غلا مرضا حيدري ابهري، نظرة إلى حياة السيدة فاطمة المعصومة، ترجمة أحمد العابدي. وبالطبع، نحن لا نتَّفق مع هذه الآراء، ونعتقد أنَّ الشفيع الوحيد للمسلم هو عمله، أمَّا شفاعة المصطفى عليه السلام فهي لرفع المقامات لا لتحويل المقام، ومع ذلك لا نجرأ على التضليل والتفسيق والتكفير.

اليوم السادس:

في مجمع التقريب

الساعة العاشرة صباحا كنَّا على موعد في «مجمع التقريب بين المذاهب»، فوصلنا بحمد الله في الوقت المحدَّد لنا ببضع دقائق قبل العاشرة، وموقعه في نفس شارع النزل الذي نزلنا فيه، وهو: «شارع طالقاني»، لكن لطول الشارع يحتاج الراجل إلى نصف ساعة مشيا لينتقل من النزل إلى المجمع... مع العلم أنَّ أطول نهج في العالم يقع في طهران، يبلغ حوالي 30 كلم، يقطع طهران من شمالها إلى جنوبها، حسب ما علمنا من بعض المصادر، ولم نتحقق من صحَّة المعلومة.

في المجمع استقبلَنا عالم جليل، وصاحب أخلاق فاضلة، هو الدكتور «محمد حسن تبرانيان»، له العديد من المؤلَّفات، ويشغل منصب مساعد الأمين العام للمجمع: الشيخ محمد علي التسخيري... وقد استفدنا من اللقاء فوائد كثيرة، أهمها:

1. أنَّ د. محمد حسن هو الذي كتب مادة «اباضيه» في الموسوعة الإيرانية الكبرى، وذلك باللغة الفارسية، وقد اعتمد حوالي 300 عنوانا بين مرجع ومصدر، والمقال يقع في 100 صفحة، وقد طلبت منه أن يصوِّر لي نسخة منه، ووعدني بذلك.
2. اهتمام الدكتور بالدراسات الزمنية، جعله ينظر إلى «أصول البرمجة» بعين التقدير والاهتمام، وبعين العارف والعالم، وأبدى إعجابه الشديد بالموضوع وبالكتاب، ومرَّ بين فصوله، وقرأ بعض المقاطع منه، بنهم وإثراء... فطلبت منه أن يطالعه وأن يمدَّني بالنقد والملاحظات، حتى أستفيد منها.
3. سجِّل اسم «معهد المناهج» ضمن قائمة المؤسَّسات المتعاونة مع مجمع التقريب، ومن بين الفوائد أن ترسَل إلينا منشوراته، من مجلات وكتب ودراسات، عبر البريد تباعا.

4. طلبت منه أن يسعى لتدريس المذهب الإباضي في كلية التقريب، والمذاهب المقرَّرة حاليا هي: المذاهب الفقهية الشيعية، والمذهب الحنفي، والشافعي... وقريبا سيشرع في تدريس المذهب المالكي، وقد وظف باحث من المغرب للقيام بهذه المهمَّة... فوعد الدكتور بالتنسيق مع سماحة الشيخ الخليلي، وهو عضو استشاري للمجمع، في هذا السبيل.

وعد بإيفاد مواضيع الحوليات والمجلات قبل طبعها، حتى أتمكَّن من المشاركة فيها بالمقالات والبحوث، حسب تخصصي طبعا.

وأخيرا، التزمتُ - باسم جمعية التراث، والمناهج - بإرسال مصادر ومراجع إباضية، لإثراء مكتبة المجمع والجامعة.

❖ وآخر مفاجأةٍ اكتشافي أنَّ آل طه صديقٌ لتبرانيان، ولم يعلم بوجوده في المجمع إلاَّ من خِلالي، وذلك حين أعطيته بطاقة الزيارة، حتى يتصل به لتسلُّم المقال عن الإباضية، فتأثر آل طه أيما تأثر، وقال: «هذا الرجل الفاضلَ صديقي منذ أزيد من أربعين سنة، وقد انفصلنا لظروف قاهرة منذ عشر سنوات، وكنت أحسب أنه الآن في الخارج، ولعلَّه يعتقد أنني في الخارج... وأنا سأزوره، فهذه منَّة من الله تعالى»

ثم طلب آل طه مني أن أسعى للتنسيق مع المجمع، ليكون فرعُه في الجزائر بإدارتنا في المناهج أو في غيره، وقال: «سأجتهد في هذا السبيل».

وأنا بدوري عليَّ أن أعدَّ رسالة أشرح فيها المطالب ونتائج اللقاء، وأودعها اقتراحات المناهج، ثم أرسلها إلى آل طه ليأخذها باليد إلى صديقه، وذلك إمعانا في الحرص على أن تدخل العلاقات حيز التنفيذ، ولا تبقى حبرا على ورق.

ودَّعَنا الدكتور تبرانيان بحرارة، ودعا لنا بدعوات مباركة، ووعد باستجابة الطلب إذا دعوناه إلى زيارة الجزائر، والمحاضرة في المعهد.

❖ كانت الوجهة إلى ساحة الحرية «ميدان آزاد»، وفيها يتربَّع شعار طهران العمراني، وهو بناية ضخمة، محاطة بحدائق، وبِركة ماء اصطناعية، والورود منسَّقة بفنٍّ، حتى لكأنَّ البناية عقد في جيد حسناء، ذات دلال، تسبي الناظرين، وتدفعهم إلى حبها حبًّا عذريا عفيفا طاهرا، وهكذا طهر المرأة يزيدها جمالا وبهاء.

❖ ثم تغذينا قريبا منه، وذهبنا بالطاكسي إلى «بازار بوزوردو» وهو سوق يأوي الآلاف من المحلات، من أبسطها إلى أكثرها رونقا وعصرنة، فالتجارة هنا رائجة، والناس يسعون كل إلى سبيل... لكن المنظر الباعث إلى العطف والشفقة، هو منظر شباب في مقتبل العمر، وهم يعملون «حمَّالين»، وعلى ظهورهم سرج وكأنَّه سرج حصان...

وفي السوق اقتفينا آثارا كتبت لنا في الأزل، واقتنينا أشياء صنعت على ظهر الغيب لنا، فسبحان علاَّم الغيوب، ومدبِّر الأمور كيف يشاء...

❖ وقبيل المغرب دخلنا الغرفة رقم 1522 بنزلنا، وصلينا العشاءين جماعة، فكانت لنا جولة أخيرة، وهي مسك الختام، إلى حديقة قد تشبه ما يراه الناظر في أحلامه اللذيذة، وكأنها من عصر ألف ليلة وليلة، أو من زمان المستكفي بالأندلس... وأبرز ما فيها أنَّ المرأة ملزمة بالحياء والحجاب الرسمي الملتزم، ولا تُقبل أيُّ امرأة بحجاب سافر، أو ببعض الشعَر من ناصيتها يغري مرضى القلوب... ذلك أنَّ داخل طهرانَ الكثيرُ من النساء يرتدين «الفولار»، لكن يتركن بعض الشعَر يظهر... وذلك ما لا نجده في قم مثلا... وقديما قال عالم: «العواصم من القواصم».

❖ ومصيبتنا في عالمنا العربي أنَّ الأماكن السياحية الجميلة حلالٌ على السافرات حرام على المحجَّبات، حلال على العصاة حرام على التقاة... لا بنصِّ القانون (إلاَّ ما شذَّ)، لكن بفعل الواقع، وبالإخلال بالحياء... وقليل من الناس من يرتاد مثل هذه الأماكن، وقلبُه مفعم بالإيمان، متعلق بالرحمن.

مئات من الناس يأوون إلى هذه الحديقة كلَّ ليلة، ودخول المطعم لا يكون إلاَّ بانتظار خارجه، لكثرة الواردين والصادرين... كلُّهم مع عائلاتهم، من أصغر طفل إلى أكبر عجوز...

كان لنا حوار أوان العشاء وفي الطريق، مع آل طه، ومما استفدنا منه أنَّ الطبَّ متطوِّر في إيران، ونسبة نجاح العلميات الجراحية للقلب (المفتوح) تصل إلى ثمان وتسعين في المائة، وأحد المستشفيات يجري أكثر من عشرين عملية يوميا... مما جعل الكثير من الوافدين من دول الجوار ومن أوروبا يؤمُّونها لإجراء العلميات (ومن الأسباب كونها رخيصة مقارنة بالغرب).

وكذا الدواء مصنوع في إيران بمقاييس ألمانية، عالية الجودة، ونسبة

الاكتفاء الذاتي حوالي تسعين في المائة، مع التصدير كذلك...

وفي ألمانيا حاليا حوالي 18 ألف طبيب إيراني، وفي أمريكا حوالي 40 ألف طبيب... وفي وكالة الناز أكثر من مائة عالم من إيران...

إنها نهضة بكل المقاييس، وهذا الذي يفسر خوف أمريكا منها، ذلك أنَّ تكنولوجيا «النووي» لها أسبقية وخلفية صناعية عالية... فلو كانت نشازا لما أخافت أحدا... وأمريكا حريصة على مصالحها الاقتصادية في الخليج، لا على أمن الدول العربية، كما يحلو للبعض أن يتوهَّم ويوهِم... وهكذا كانت ملاحظات أخوينا اللذيْن زارا معامل ومصانع عالية الجودة، كانا منبهريْن بها...

أمَّا اهتمام الإيرانيين بالنظافة، وبالورود، وبالخُضرة، وباللباقة، وبالبشاشة، وبالخلُق الحسن، وبالإحسان... فأمر يعجز اللسان عن وصفه، ويقصر القلم عن التعبير عنه...

ولنا مَثَلٌ في آل طه، الذي يخدمنا ويعتذر إلينا، ويعطينا الذي يعطينا ولسانه لاهج بالحمد وكأنه هو آخذه... وكلَّما سألتَ عن شيء أو نطقت باسمه سعى إلى توفيره لك، وسارع في ذلك جهدَه، حتى ولو كلَّفه عنتا ونصبا... وهو ممن يطعم الضيف ولا يسأله جزاء ولا شكورا... رجلٌ في كبر من العمر، وشباب من الحركة والحركية، وطاقة من الإحسان، وهو مع ذلك عالم جليل، وخبير بمجال عمله... جرَّب الجامعة طالبا وأستاذا، وجرَّب المسؤوليات في الإعلام والتجارة وغيرهما... إنه كما يقول المثل السائر:

«نسيجُ وحدِه».

المقالة الدمشقية

باقة من المقالات والخواطر، دوِّنت في دمشق، صائفة 2007م، في رحلة عائلية دامت قرابة ثلاثة أشهر.

المقالة الدمشقية 01

المرجعية والتخلف[1]

هل غياب المرجعية هو سبب التخلُّف؟

أم أنَّ التخلُّف هو المقدمة، وغياب المرجعية نتيجة حتمية؟

إنَّ الولوج في حلبة الجواب على هذا السؤال دون تريُّث، سيكون غير مأمون العواقب والمخاطر، ذلك أنَّه بمثابة المبحث الفلسفي العقيم: أيهما أسبق، البيضة أم الدجاجة؟

فالقول بأنَّ التخلُّف هو المقدِّمة يعني، بكلِّ بساطة، أنَّ الحلَّ لمشكلة التخلُّف غير ممكن، ويقرِّبنا أكثر من فلسفة نيتشه، ثم يُعطي مبررات وحججًا مجَّانية للداروينية وتطبيقاتها لدى هيتلر في الأولين، وبوش في الآخرين.

ولا شكَّ أنَّ مثل هذه المغالطة في تفسير جدلية الحضارة قد اكتسب نوعا من الاحترافية لدى كتَّابٍ ومثقفين كثيرين، لعلَّ فرَج فوده، ومن على مذهبه يمثِّلون وجهه الضعيف، وأركون ومن نحا نحوه يمثِّلون الوجه الأكثر خطورة اليوم.

---

1 ألَّفت في دمشق كتابا بعنوان: «المرجعية: من النزعة المحلية إلى الجامعة العالمية»، لا يزال مخطوطا؛ وهذا المقال فقرة منه.

أمَّا الصادق النيهوم، وهو باحث وكاتب ليبي الأصل، ناقمٌ على أوضاع الظلم والقهر في بلده وسائر البلاد العربية، لعلَّه لا يبتعد كثيرا عن الاتجاه السلبي في تفسير جدلية الحضارة، غير أنه في هذه الإشكالية (التخلف والمرجعية) يبدو أكثر اتزانا ومنهجية، وهو يقينا أقرب إلى الجدية في دعوته إلى «أمَّة الجامع» عوض «أمَّة البرلمان»، وفي هذا نقرأ له مقالا في كتاب «الإسلام في الأسر»، تحت عنوان «باسم الطربوش»، ومما جاء فيه: «التخلُّف أن تكون أيَّ شيء، وأن تسمِّي نفسك بكلِّ الأسماء، ما عدا أن تمتلك - بالفعل - دستورا للإدارة الجماعية، قادرا على حماية الأغلبية من التخلُّف... من دون هذا الدستور، تستطيع أن تنشر العلم في كلِّ مكان، وتجعل السماء تمطر ذهبا، لكن غياب الإدارة الجماعية سوف يجعل الذهب يتجمَّع كلُّه في خزانة رجلٍ واحد، والعلم يتجمع كلُّه بين يدي (عالم) واحد، ينطق دائما بصوت رسمي».

فهذا الرأي يجعل من المرجعية، التي يسمِّيها «الإدارة الجماعية»، مقدِّمة وسببا للتخلُّف أو التحضُّر، فوجودها وفعاليتها تحت قبة الجامع يعيد المسلمين إلى سدَّة الريادة، أمَّا إعدامها - بالدفاع عن انعدامها - فيضيف قرونا أخرى من تبعية هذه الأمَّة لغيرها، ويولِّد الحنين لدى «إنسان القلَّة» - بتعبير ابن نبي

- إلى مستعمِر جديد، قد يتغير شكله، ولكنَّ حقيقته هي هي.

ولعلِّي أميل إلى هذا الطرح، وبخاصَّة إذا طبَّقنا الإشكال على العالَم الإسلامي اليوم، وعلى شقِّه السني-الإباضي بالخصوص... فغياب المرجعية (أو المرجعيات) ورَّث تبعية العالم للحاكم، واختزل الفتوى في واحد، وحرم الأمَّة من نماء ثنائية (الفكر والفقه) لحساب الفردية التقليدية (الفكر أو الفقه)... هذه الانشطارية لم تستطع منذ قرون أن تخرُج من مقدِّمات ونتائج مكرَّرة ومجترَّة، ولم تنتج فروضا جديدة ولا إجابات جديرة... فهي عاجزة، بفعل غياب المرجعية الجماعية، عن حلِّ أزمة التخلف التي يرزح تحت وطأتها اليوم حوالي مليار مسلم في العالم.

وتطبيق الإشكالية على الدائرة الأصغر «الجزائر» أو «المجتمعات المحلية» سيجعل الحكم والرأي أكثر وضوحا، فغياب المرجعية الجماعية هو السبب في كلّ الشرور التي اجتاحت بلادنا لعقود ولا تزال، وعدمُها، باختصار، هو مقدِّمة والتخلُّف نتيجته، وهو المبتدأ والتخلُّف خبره...

❖ تمرين تطبيقي: حاول أخي القارئ أن تقرأ مشاكل الأمّة والمجتمع على ضوء غياب المرجعية، وتحيل إليها على الأقل ثلاث مرات في اليوم، ومرّة واحدة في كلّ حوار تجريه على الأقل...

المقالة الدمشقية 02

الفقيه والمرجعية

الفقه في أصله هو الدراية والمعرفة الراسخة، والفقيه هو النائب عن الرسول صلى الله عليه وسلم في تبيين دين الله تعالى للمسلمين، ولا يقتصر الفقه - بأيِّ حال من الأحوال - على جانب واحد من الحياة، بل يشمُل جميع مناحي الحياة: العقدية، والتشريعية، والفكرية، والحضارية، والسياسية...

ولقد كان الفقهاء (أو الفقيه) في عصور ذهبية مضت، المرجعَ الذي يُنير درب الأمة، ويضيء ليلَها، ويوحِّد صفها؛ غير أنَّ الخلاف والشقاق الذي مزَّق جسد الأمَّة بعد وفاة المصطفى عليه السلام بسنين، غيَّر دَور الفقيه، فحوله إلى مُنافح عن مذهب أو مدرسة أو اتجاه، عوض أن يكون رائدا في دين الله تعالى، بلا لون ولا انتماء، ومن ثمَّ وُلد الفقيه السني، والفقيه الشيعي، والفقيه الإباضي، والفقيه المعتزلي، والفقيه الصوفي...

وفي غضون ذلك الصراع، الذي احتدَّ أحيانا، ليتحوَّل إلى تضليل الآخر وتبديعه «استمرَّ العلماء في إصدار الفتاوى والأحكام، في وقت قام فيه بعضهم بتقديم فتاواهم الخاصَّة، وإنشاء طوائفهم وطرقهم المختلفة، وفي سبيل إثبات صحَّة ما يدَّعون قام بعضهم بدسِّ أحاديث لا أساس لها من الصحة» (انظر- مهاتير)، فتشوَّشت المنظومة المعرفية الشرعية، وخمدت بالتبع الحركة الحضارية للأمَّة، ذلك أنَّ حركة الوضع نشطت، فاختلط على الناس أمرهم، وضاعت أمام العباد وجهتهم.

ومن هذا المنعرج التاريخي الخطير نشأت التفسيرات المتباينة للإسلام، فماتت المرجعية الجماعية، لتترك مكانها لمرجعيات ذرِّية، كل واحدة منها تدَّعي الصواب في جهتها، وتنفي اجتهاد من خالفها.

ولقد أحصى بعض العلماء ما يزيد عن ألف طائفة في الفكر الإسلامي اليومَ، تتراوح بين متشدِّد ومتسيب، ونتيجةً لذلك وقع المسلمون في حيرةٍ بالغة، وأصبحوا غير قادرين على تمييز الصواب من الخطأ، ولا الحقِّ من الباطل... فانتهى الحال ببعضهم إلى مجانبة العقل والابتعاد عن الطريق القويم.

فياليت الاختلاف اقتصر على الفروع، إذن لهان الأمر، ولاعتُبر ثراء للإسلام، لكنه في أحيان كثيرة تركز على الأصول والمبادئ، حتى أضحى التكفيرُ مرادفا لعلم الكلام، وشرطا من شروط العقيدة... فمن لم يكفر هذا أو ذاك عُدَّ مستهترا، ومن لم يعتقد الحقَّ المطلق في جهته اعتُبر متسيبا، وتعرَّض للتكفير والتضليل من قبل حُماة مذهبه واتجاهه.

وفي خضم غياب مرجعية حقَّة، توحُّد صفَّ المسلمين على الأصول، وتعلِّمهم أدب الاختلاف في الفروع، سيظل الفقيه - ما لم يكن ربانيا - وبالا على أمَّته، عوض أن يكون رحمةً عليها، وستكون الفتن بين المسلمين أعتى وأشدَّ من التي تكون مع أعدائهم، وسترزح الأمَّة تحت وطأة استعمار قد يتغيَّر اسمه وشكله، ولكن محتواه ومؤداه واحد.

وفي تقديري، إنَّ غير المسلمين بفعل الأبحاث والدراسات والتخطيط صاروا أعرفَ وأدرى بمكامن الوفاق والفراق بين المسلمين، فهم اليوم يشدُّون بخيوط الممثلين على المسرح الإسلامي، تماما مثل موجِّهي عرائس القراقوز، فيحرِّكون أيَّ فتنة، في أي وقت، وبأي صيغة أرادوا.

هل بعد هذا نتشبَّث بما يفرِّقنا، وندع ما يوحدنا؟

ألم يأن الأوان أن يجتمع الفقهاء من مختلف المشارب والتخصُّصات، فيجمعوا طاقاتهم على صعيد واحد، ويتحوَّلوا إلى طاقة وفرج للأمَّة جمعاء، ثم ينتصروا على عدوٍّ طالما استعمر أمَّتنا، وهو اليوم يسعى جاهدا لاستحمارها (من مادة الحمار، بلغة شريعتي)...

فهل من فعل وحركة؟ وهل من تخطيط وتنفيذ؟

الله تعالى يوفِّقنا لذلك، سبحانه هو القائل:

«لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم،

ولكن الله ألف بينهم»

المقالة الدمشقية 03

عاصفة الثقافة العربية[2]

كنت منهمكا في مطالعة مقالات «الصادق النيهوم» التي نشرها في جريدة «الناقد» سنة 1988م، وما بعدها... وفجأة قاطعني ابني الربيع بسؤال قطع عليَّ حبل تفكيري، فسألني بإلحاح: «أبي، هل الجزائر حقًّا هي عاصمة الثقافة العربية؟» فلملمْتُ أفكاري، ووَزَعتُ كلماتي، لأجيبه جوابا يُذهب عنه ظمأ السؤال؛ لكنَّني تردَّدتُ، فقلت له: نعم. ثم قلت: لا. ثم أردفت فقلت: لا أدري.

فتذكَّرت ما أنشده بعضهم عن الانتخابات:

قال فريق القوم **لا**، وفريقهم **نعم** وفريق قال: **ويحك لا أدري**

نعم، لأنني - حبًّا لوطني - تمنيتُ أن لو كانت بحقٍّ عاصمةً، لا للثقافة العربية فقط، لكن للثقافة الإسلامية والعالمية أيضا.

نعم، لأنَّ بلدي يملك من الإمكانات والطاقات والمعطيات ما يسمح له بتبوُّأ هذه المكانة المرموقة، بلا ندٍّ ولا منافس.

نعم، مرَّة ثالثة، لأنَّ «نعم» تُريح العقل، وتغني عن بذل الجهد، وتبرِّر الكسل، وتُكسب المناصبَ، وترضي الزعامات والزعماء... إنَّ «نعم» هي بلا منازع المصعد الذي يحمل الإنسان العربيَّ من ضحضاح الهموم اليومية إلى مراقي «الكراسي»، و«القاعات المكيَّفة»، و«الفيلات البديعة»، و«الرحلات العالمية المجانية»...

لكنني، ما لبثت - في لمح البصر أو هو أقرب - أن استعدتُ رُشدي وصوابي، وأعدتُ عقلي إلى منزله الذي خُلق له، فقلت لابني، بملء فيَّ: «لا، لا، ليست الجزائر عاصمة للثقافة العربية».

---

2 كانت صائفة عام 2007 مسرحا لاحتفالات ومهازل تحت مسمَّى «عاصمة الثقافة العربية»، تقودها ثلة ممن لا خلاق له ولا ذمَّة؛ ثم بعد أمد ظهرت الفضائح والاختلاسات، ونشرت في الجرائد الوطنية، ونهي تحسب بالملايير

لا، لأنَّ الثقافة في وطني اختُزلت في حفلات ماجنة، وفي مسرحيات فارغة، وتحوَّلت إلى قُبلات مجانية يهديها المخنَّثون للمترجِّلات، وتسخو بها الفاسقات للطامعين الذين في قلوبهم مرض.

لا، لأنَّ حقيقة الإبداع والتأليف والنشر في بلدي صارت بلا حقيقة، وباتت مرتعا خصبا للرشوة، والمحسوبية، تماما مثل المجالات الأخرى في الحياة الإدارية... فلا ينشر - بمناسبة الثقافة العربية، إلاَّ الممجوج - حاشا ما شذَّ - ولا يُقبل إلاَّ ما وجد طريقا «للمعرفة» بالدارجة، لا بالفصحى...[3]

لا، لأنَّ «لا» هي عنوان الرفض الأبيِّ، وهي دليلٌ على حياة العقل، ولذا كانت الشهادةُ في الإسلام بصيغة النفي لا الإثبات، وكانت «لا» هي صدر تلكم المعاني الخالدة: «لا إله إلا الله».

غير أنَّ بعض الجهود المقبولة اخترقت عليَّ حصن تفكيري، وخِفت أن أبخسها حقَّها، أو أظلمها، فأُحشر بسببها في زمرة الظالمين، فقلت لابني: «لا أدري...»

لا أدري، لأنَّ الأمور قد اختلطت عليَّ وعلى كلِّ لبيب، فصرتُ لا أفرِّق بين الغثِّ والسمين، ولا بين البخس والثمين... ذلك أنَّ بعضا ممن عُقد فيهم الأمل صاروا أبواقا للرداءة، وبعضَ من لا يقدر على شيء بدا منافحا عن الأصالة...

لا أدري، لأنَّ «لا أدري» تُنجيني غدًا يوم القيامة عند ربي، يوم يكون سمعي وبصري ولساني شهداء لي أو عليَّ، فلا ملاذ إلا في «لا أدري».

لا أدري، لأنها وإن كانت لا تصيب عين الحقِّ دائمًا، لكنَّها كذلك لا تداهن ولا تنافق من حادَّ الله وعزف عن الحقِّ... فهي في ذلك وسط، أو هي بين بين.

لكن، هل يمكن أن نغير حرفا واحدا في الجملة، فتستوي المعاني على سوقها، ثم نقول عوضا عن: «عاصمة الثقافة العربية»، إنَّ

---

3 يستعمل لفظ «المعرفة» بالدارجة للدلالة على الوساطة في مؤسَّسة أو إدارة ما، فيقال: «فلان له معارف» أي وساطات، وهو صاحب محسوبية ورشوة.. وهذه الدلالة من قبيل استعمال اللفظ وقصد عكسه؛ أي أنَّ هذا الفعل الشنيع والمحرَّم شرعا، هو جهل وجهالة لا معرفة وعلم.

الجزائر والتي قبلَها والتي ستأتي بعدها في العام القابل: «عاصفة للثقافة العربية»..

ولكلٍّ قارئ أن يحلل لفظ «العاصفة»، ويتبحَّر في دلالاته، ثم يُسقط كلَّ ذلك على الحقيقة والواقع... أمَّا أنا فأدعو الله تعالى أن يلطف بنا، وأن لا يجعل عاصفتنا مثل إعصار عُمان [4] لأنَّ الخسائر يومها ستكون وخيمة، والأمر سيكون جللا...

فاللهمَّ الطف بعمان، والطف بالجزائر، والطف

بعاصمة العام المقبل...

4 وقع إعصار كبير في مسقط عاصمة سلطنة عمان في تلك الفترة، ولكنَّ الله سلَّم. وللتذكير فقد كانت مسقط عاصمة الثقافة العربية في العام الماضي.

المقالة الدمشقية 04

رسالة ... من حافة القبر!!!

كانت العائلة كلُّها منغمسة في حزن شديد، الوالدان والأعمام والأخوال والخلان، جميعُهم منهمكون في التحضير لمراسيم دفنٍ... فلقد واللهِ لحق بالرفيق الأعلى أربعة من الناس، بل عائلة بأكملها... فاللهمَّ ارحمهم برحمتك الواسعة.

في صوت خافتٍ، وألم معتصِر، قال أحدُهم: «هل تعلم أنَّ المنعيّ هو محمد، وزوجته، ووَلَديه: الربيع ويمنى...؟ «إنا لله وإنا إليه راجعون».

لكن، يسأل أحدهم: «ما سبب الوفاة؟ ومتى؟ وأين؟ وبماذا؟»

أجاب ثالث: «لا يهمُّ، كلُّ الذي يعنينا أنهم الليلة سيبيتون في قبورهم، ويتحوَّلون من عِداد الأحياء إلى عداد الأموات... فهذا سبيلنا جميعا، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه».

أما أنا (محمد) فقد كنت داخل كفني، أسمع أصوات الناس حولي، ما بين باك ومترحِّم، وصابر وذاكر... «فوربِّ السماء والأرض إنَّه لحقٌّ مثلما أنكم تنطقون»، ووالذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة، إنَّه لصدق مثلما أنكم تسمعون...

والعجيب الذي لا يغادر الذهن، هو أني: كنت على أتمِّ الوعي أنني لم أمُت بعد، وأنَّ زوجتي وولَديَّ كذلك لا يزالون على قيد الحياة... وأنَّ ثمَّة قوَّة ضاغطة شرِّيرة تحوم حولنا، وتريدنا أن نُشهر شارة النهاية، فنقتنع بحتفنا، ونعلن نهايتنا...

في أجواء إحساس رهيبٍ، كنتُ أحاول أن أخرج من عالم الأموات المفروض عليَّ، وأخترق حُجب البعد الآخَر الذي سُجنتُ فيه، ثم أعود إلى ما كنت فيه من الحياة، لعلِّي بعد ذلك أنقذ الأهل واحدا واحدا... قبل أن يستعجلهم الناس بالغسل والدفن،

وهم أحياء... امتثالا لأمر الرسول الأعظم عليه السلام بالتعجيل بالموتى.

ثم إنني على يقين أنَّ الحاضرين مِن حولنا كانوا على جهل تام بما يقع، وأنهم مستسلمون لأمر الله تعالى، راضون بقضائه وقدره، تالون قول الله تعالى في مثل هذا المقام: «كل نفس ذائقة الموت...»، «إنا لله وإنا إليه راجعون».

فجأة تمكَّنت من اختراق الحجب، لا حجب الموت الحقيقية، فإنَّ تلك لا إرادة للبشر عليها، «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون»؛ لكنني اخترقت حجب موتٍ وفناءٍ مِن صُنع البشر، الذين يريدون الفساد في الأرض، ويبغونها عوجا.

أحسستُ وكأنَّ جرعة من الهواء تغمُر قلبي، فيستنشقها، وتعود لي الحياة الغالية قبل ارتداد الطرف، هذه الحياة التي لا يهبها أحد إلاَّ الله تعالى، ولا يقدر أحد أن يسلبها إلاَّ الواحد الديان.

فقُمت من مقامي، وكان الناس يرمُقون إليَّ بحيرة شديدة: أهو حي، أم هو ميت...؟ ما الذي نرى؟

فزع مَن فزع منهم، ووحَّد الله أكثرُهم حِكمة ويقينا... ثم سارعتُ إلى إنقاذ بقية الأهل بعون من الله تعالى، وبتوفيق منه... فعاد إلينا أعزُّ ما نملك: الحياة. لنبلغ بها أعزَّ ما نطلُب: رضا الله تعالى، وجنتَه، ومغفرتَه.

لكنني كنت حينها حادَّ المزاج، مضطربا، قلقا، متَّقد الفكر... أحمل همًّا، بل هموما، تنوء عن حملها الجمال، وتشفق من حملها الجبال... إنها ليست همومي الآنية، الدونية، اليومية... بل هموم أمَّتي، ومسير أمَّتي، ومصير أمَّتي...

وما هي إلاَّ ومضات، حتى شُحنتُ بطاقة لا مثيل لها في عالم المعاينة، فسمعت داعٍ من قرارة نفسي، وصوتا من داخل فؤادي، فاشتعَلَت روحي، وغمرها نورٌ وأيُّ نور، ثم أعلنتُها صراحة، رافعا راية التحدي، والجهاد، والصبر: «بإذن الله تعالى، سنقيم صرح الحضارة، وسنمكِّن لدين الله في أرض الله، وسنقصم ظهر الطغاة والظالمين، وسنرفع الهوان عن المسلمين المستضعفين، وسنحرر كلَّ شبر من أرض فلسطين...»

ثم أخرجت وثيقة كُتبت بماء الذِّكر، وخُطَّت بقلم الفكر، على

ورق العرفان، بحبر الوجدان، كانت داخل ظرف من الحكمة، بها ختم من الحلم، لونُها أميلُ إلى لون الوحدة، وحجمها حجم الصبر...».

فقرأت ما فيها:

«العنوان: دستور النهضة الإسلامية الشاملة».

«بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد الأمين، وبعد:

فإنني أعلن صراحة وبصدق، أنني وأهلي وعائلتي وكلٌّ من حولي، وباسم جميع من جمعني به عمل أو علم، وكلُ أخ لي في الله تعالى... نعلن أننا عازمون، بإذن الله تعالى، على التحدِّي، والاجتهاد، والصبر، والمصابرة... إلى أن نلقى حتفنا، أو نمكِّن لدين الله في أرض الله... وإن لم نفعل فموتنا موت وحياتنا موت... أمَّا إذا فعلنا، فحياتنا إن شاء الله حياة، وموتنا بإذن الله حياة..

نحن لا نأبه بحياة الأجساد، فإنَّ أعمار العباد بيد ربِّ العباد، ولا نخاف فناءَ الأرواح، فإنَّ الروح مِن أمر ربنا... لكنَّ الذي يؤرقنا ويقلقنا هو: حياة الأمَّة، أو موت الأمَّة...

فغايتنا بإذن الله تعالى أن ننال رضاه، ورسالتُنا أن نحقق النصرة للمسلمين، فنغير ما بأنفسنا ليتغير ما بنا «إنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»...

ورايتنا التوحيد للخالق، والسعي لوحدة المسلمين في حبِّ الخالق».

❖❖❖❖❖❖❖

هنا، استيقظتُ من نومي، وقد رأيتُ بعض فصول هذا الحدث رأي العين، لا يماريني أحدٌ على ما رأيت... ثم وصفته كما رأيته، ولعلِّي أضفت بعض الكلمات، والعبارات، والمعاني، ليكتمل المقال، وتتحقق الفائدة... لكن الفحوى كان كما ذكرته بلا زيادة ولا نقصان...

أفقتُ، وكان أمام ناظري حزمة من الكتب، منها: التحدِّي لمحمد مهاتير، والمشروع الحضاري الإسلامي لمحمد عمارة، وأم القرى للكواكبي... ومسودة عن «كتاب المرجعية» أنا طور تأليفه... وغيرها.

فقلت أخيرا، الموت حقٌّ، وسيأتي لا محالة أجلي... لكن مشروع التمكين لدين الله لا يحدُّه عمر إنسان، ولا يتوقَّف على حياة فلان أو فناء علان... إنه أكبر من ذلك، وأطول من ذلك، وأعظم من ذلك...

وإني لأودُّ أن أعيش يوما واحدا، تطلع فيه الشمس على فلسطين محرَّرة، وعلى أمريكا وحلفائها، وهم في أحلك أيامهم، ممزَّقين ومشرَّذمين، وهذا جزاء الظالمين...

فاللهمَّ مكِّن لدينك في أرضك، واجعلنا سببا للتمكين

تمرين عملي: كلُّ واحد في مشروعه، يتخيَّل انه مات، وأنَّ الدعوة والعمل متواصلان بدونه، فيسخِّر الأسباب لهذا المطلب العزيز... فالتمكين ليس رهين إنسان واحد... مهما كان شأنه.

المقالة الدمشقية 05

هل وحَّدَنا العدو المشترك؟

إنَّ الجمود والسلفية - بمدلولها السلبي - تقف اليوم في مواجهة الحداثة والتقدمية - بمفهومها السلبي -، ولقد صارت العداوة بين المسلمين أكثر حدَّة وضراوة من العداوة بين المسلمين وغيرهم...

ولا يزال المسلمون إلى اليوم يعيشون على وقع صفين، وعلى وقع الصراعات التاريخية فيما بينهم... لم يستطيعوا أن يترفَّعوا عن الخلاف، ويؤسِّسوا للوفاق، رغم كثرة الدراسات والكتب والمحاضرات والمؤتمرات، في هذا الشأن...

هذا الذي ذهب بريحهم، وبدَّد طاقتهم، وأحالهم إلى أمَّة مهزوزة مهزومة، لا يُخاف جانبُها، ولا يُرجى نفعها، فلقد تترَّس اليوم بعض المسلمين في حرب ضدَّ البعض الآخر... بل إنَّ العدوَّ المشترك، وانتشار التقتيل في صفوفهم، لم يوحِّدهم، ولم يدفعهم لتناسي خلافاتهم، بل إنها تزداد ضراوة... ولا أدلَّ على هذا الوضع من حال فلسطين اليوم، ومن حال أبناء العراق... فالعدو جاثم على ظهورهم، وهم يتقاتلون، ويقتلون آمال الأمَّة كلَّ يوم ألف مرَّة... فهل آن الأوان لنرتفع عن السفاسف، ونتعلق بالعظائم، ونحقِّق للأمة الأمل الذي تعلقه في دينها؟ أم أنَّ الصبيانية ستكون سيدة الموقف، والفشل سيكون سمتنا وصفتنا الأبدية؟ هذا ما تجيب عنه الأيام، وإن كنا لا نحبِّذ التذمر والشكوى، ولنا أمل ورجاء في الله تعالى، وفي أبناء أمتنا.

يقول المفكِّر العالمي المسلم محمد مهاتير[5]: «ما من مجتمع إسلامي أو دولة بعينها بدأت سعيا حثيثا لإحداث التنمية وامتلاك المعارف والمهارات المختلفة لتعزيز قدراتها، بما يوفِّر لها إمكانية حماية الأمَّة الإسلامية، إلاَّ وثار الجدل الديني العنيف، والخلافات الحادَّة، حول توجُّهها الجديد، الأمر الذي يؤدي إلى صرف العقول وتبديد طاقات المجتمع من خلال

5 للتذكير: أتممت تأليف كتاب «القاموس الحضاري للمجدد محمد مهاتير» في دمشق، بمناسبة هذا التفرغ المبارك؛ ثم نشرته بحمد الله في دار عالم المعرفة، الجزائر سنة 2009م.

الانجرار وراء حملات الدفاع عمَّن يسمُّون أنفسهم بالمسلمين التقدميين في مواجهة هجوم السلفيين. وحتى إذا كان أعداء الإسلام يقفون على الأبواب، فإنَّ المسلمين لن يجدوا حرجا في تصعيد الخلافات والصراعات التي تعصف بمجتمعهم، وهي صراعات لم ينجحوا على مدى التاريخ في حلِّها» (مهاتير: الإسلام والأمة الإسلامية، ص43)

وحتى نخرج إلى دائرة العمل والفعالية، وجب على العلماء والمفكرين، وعلى الساسة والموجهين، أن يركِّزوا على وحدة الأمَّة، ويرتفعوا عن أسباب الفرقة والشقاق، هذا من أوكد واجبات ديننا الحنيف.

المقالة الدمشقية 06

رسالة إلى من شغلته الفتن... ففتن

اختلط على الناس الحق بالباطل، وشُغلت الأمّة بالفتن، مشرقها ومغربها، ولم ينج من ذلك إلاّ من رحم الله، فنظر إليها نظر الحكيم، وقال ما يرضي الله، وفعل ما لا يغضبه... فلم تنج الجزائر منذ عقد من الزمان من هذه الفتن، ويبدو أنَّ حرَّها وقيضها لحق ميزاب، ولا أدلَّ على ذلك من رسائل تصلني وتصل الكثير منَّا عبر الأنترنات، عن مواضيع شتى، وفي محن تترا، تحمل السبَّ والشتم والتضليل، والحديث في عِرض الناس بما لا يقبله مسلم... وكل ذلك يأتي باسم الدين... فرسالتي اليوم صريحة إلى كلٍ من تعمَّق في الفتنة:

«عليك بتقوى الله، ولا يغرُّنك ما أنت فيه عما ستكون فيه... فكم من فتَّان قد لقي ربَّه، وهو اللحظة تحت الجنادل يلقى من عذاب ربِّه ما لا يحتمله بشر، ولا تطيقه الجبال، أمَا وإنك أيها المشتغل بالفتن، إذا لم تخف ربَّك، آيل إلى ما آل إليه كل فتَّان، وملاق ما لاقاه... فاتق الله...».

وهذه نصائح من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحمل معاني فيها الشفاء لمن استشفى، ولكنها وبال على من تعنَّت... فالرجاء من الشباب أن يقرأوها بأناة، وأن يحلِّلوا معانيها في مجالسهم الخاصَّة والعامَّة، وأن يكون هدفهم العمل بما فيها، لا مجرَّد التلذذ بمعانيها... والله نسأل أن يرفع عنا الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

نصائح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

ذكر عن عمر أنه قال لزياد: هل تدري ما يهدم الإسلام؟

ثم نصحه بجملة من النصائح، منها:

- إنما يهدم الإسلامَ: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مضلُّون.
- من كان ذا وجهين في الدنيا كان ذا وجهين في النار.
- اللهَ اللهَ ذبُّوا عن حرم أغيابكم، وكفُّوا ألسنتكم عنهم، إلاَّ من خير

• ناصحوا الله في أمتكم إذ كنتم حملة الكتاب والسنة.

• متى يتعلَّم الجاهل إذا سكت العالم، فلم ينكر ما ظهر ولم يأمر بما ترك؟

• اتقوا الله فإنكم في زمان رقَّ فيه الورع، وقلَّ فيه الخشوع، وحمل العلمَ مُفسدوه، فأحبُّوا أن يُعرفوا بحمله، وكرهوا أن يُعرفوا بإضاعته، فنطقوا فيه بالهوى

• كيف يهتدي المستدل المسترشد إذا كان الدليل حائرا.

• العامِل بالحق متكلم وإن سكت.

• لا تعيبوا بالبدع تزيُّنا بعيبها، فإنَّ فساد أهل البدع ليس بزائد في صلاحكم.

• ليس ينبغي للطبيب أن يداوي المرضى بما يبرئهم ويمرضه.

• ليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظرا منكم لأنفسكم.

• كونوا بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم.

• ليستطعم بعضكم بعضا النصيحة.

• رحم الله من أهدى إلي عيوبي.

• تحبون أن تقولوا فيحتمل لكم، وإن قيل لكم مثل الذي قلتم غضبتم تجدون على الناس فيما تنكرون من أمورهم، وتأتون مثل ذلك. فلا تحبون أن يوجَد عليكم

• اتهموا رأيكم ورأي أهل زمانكم.

• تثبتوا قبل أن تكلَّموا، وتعلَّموا قبل أن تعملُوا.

• كم من متقرِّب إلى الله بما يباعده.

• كم من متحبِّب إلى الله بما يغضبه عليه.

• عليكم بالوقوف عند الشبهات؛ حتى يبرز لكم واضح الحق بالبينة

• من نظر لله نظر الله له.

المقالة الدمشقية 07

المرجعية بين رضا الله ورضا الناس

عندما تغيب المرجعية في بلد ما، ويجد الشباب أنفسهم في بيداء قاتلة، لا دليل فيها ولا مُعين؛ فإنَّهم يبحثون في كلِّ مكان، وبكلِّ الوسائل، عن سندٍ يسندون إليه آلامهم وآمالهم، غير أنَّ منهم مَن يشرِّق ومنهم من يغرِّب، ومنهم من يقرِّب ومنهم من يبعِّد... وهم بهذا الفعل يعبِّرون عن معنى واحد، وعن انشغال واحد: غياب المرجعية.

فقبل عقد ونصف العقد من الزمان، هزَّت الجزائر فتنٌ لم تُبق ولم تذر، فتاهَ الناس وقنطوا، ثمَّ راحوا يبحثون بلا دليل عن الدليل، فمنهم من اهتدى إلى سواء السبيل، ومنهم من ضلَّ عن سواء السبيل.

وكانت جملةٌ من خيرة علماء المسلمين أملَ الأمَّة وملاذها، وعلى رأس هؤلاء الشيخ القرضاوي والبوطي... فراح الكلُّ يرسل إليهم أسئلة يعبِّر فيها عن حيرته، عساه يلقى جوابا شافيا وحلاً ضافيا... غير أنَّ الكثير منهم للأسف كان يبحث عن التبرير لا عن الحقِّ... ومن ذلك ما ذكره البوطي [6] في مقدِّمة كتابه «وهذه مشكلاتنا»، فقال:

«كان لي في أفئدة ملايين الشباب المسلمين في الجزائر تقدير منقطع النظير، وثقة لا حدَّ لها، يوم كانت كلمتي ونصائحي لا تصادم لديهم شعورا، ولا تناقض في أنفسهم هوى... حتى إذا استَشْرَت بين جوانح كثير منهم روح الثأر، واعتاجت لديهم عوامل الانتقام، للأحداث المعروفة التي جرت هناك، وأخذتُ أناشدهم من قريب وبعيد، أن لا يزجُّوا أنفسهم من تلك اللواعج في تيه

6 مما يؤسف له أنَّ الشيخ البوطي نفسه، الذي كنتُ أعتبره مرجعًا للمسلمين عامَّة، حمل خطابا إقصائيا منهيا ضيِّقا، وحارب به كلَّ من يخالفه الرأي والمذهب؛ وانظر في ذلك- البوطي: «المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة»، نشر دار الفكر، 2008م.

يضللهم عن شرع الله، وينأى بهم عن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا بتقديرهم قد ذاب واضمحلَّ، وإذا بالثقة التي لا حدَّ لها قد تحوَّلت إلى ريبة وظنَّة... بل وتجهيل!»

ثم قال: «لقد كان عليَّ، لأحافظ على رصيد تقديرهم الكبير لي، وثقتهم بي، أن أسير مع عواطفهم، بل مع رعوناتهم، أنَّى سارت، وأن أصفِّق لهتافاتهم وشعاراتهم أيا كانت... ولكن، أين هذا الوفاء إذن مع أمر الله عز وجلَّ؟ أين هو الوفاء مع الميثاق الذي أخذه الله على عباده الذين ائتمنهم على تبليغ كلمة الحق:

«وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه» (آل عمران: 187)

من هذه الحادثة نتيقن أنَّ المرجعية الحقَّة ليست مطالبة بالسعي لرضا الناس على حساب رضا الله تعالى، فهي ليست برلمانا ولا حزبا سياسيا، بل هي الناطق باسم الله تعالى، وهي ظلُّ الله في أرضه، وخليفة رسول الله عليه السلام بين عباده، ومن ثم أعلن البوطي هذا المعنى آخرَ كلامه، فقال: «عليَّ أن أبلِّغ ما أعرفه من أمر الله وشرعه، وللآخَرين أن يقبلوا أو لا يقبلوا... أن يثقوا أو يرتابوا... ولأن يرضى الله عنِّي بارتيابهم أو سخطهم خير من أن تصفِّق لي الدنيا بأسرها».

ويكفي العالم والمرجعية، في هذا المعنى، حديثُ أمِّنا عائشة رضي الله عنها، في الترمذي، قال: «من أرضى الناس بسخط الله وكَله الله إلى الناس، ومن أسخط الناسَ برضا الله كفاه الله مؤونة الناس».

هكذا لتكن المرجعية المرتقبة أو لا تكون، تقولُ الحق ولا تخاف في الله لومة لائم، تجتهد في رضا الله، ولا تني في قول الحقِّ، ولا تحيد عنه قيد أنملة... فاللهمَّ ابعث لنا مرجعية تكون في مثل هذا المقام، يا عزيز يا وهاب...

المقالة الدمشقية 08

كيف يتحقّق النصر؟

يقول ابن عطاء الله السكندري في حكمه: «اجتهادك فيما ضُمن لك، وتقصيرك فيما طُلب منك، دليل على انطماس البصيرة منك».

فما الذي ضُمن للأمّة؟ وما الذي طُلب منها؟

إنَّ الذي طُلب من الأمّة أن تأتيه هو: الخضوع الحقُّ لله جلَّ وعلا، والامتثال لأوامره، والانتهاء عن نواهيه، والاصطباغ بصبغة العبودية التي من أجلها خُلق الإنس والجان، وكثرةُ الضراعة والتذلل لمسبِّب الأسباب وربِّ الأرباب.

طُلب من الأمّة أن تأخذ بيد الطائع، وتضرب على يد العاصي، وتنشر فعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في جميع مستوياتها وبين جميع فئاتها.

طُلب من الأمّة أن تنشر دين الله تعالى، وأن تعلِّم الجاهل، وتذكِّر الناسي، امتثالا لقول الله تعالى: «هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم» لا مِن غيرهم، رسالته أنه «يتلو عليهم آياته» أولا، و«يزكيهم» ثانيا، «ويعلمهم الكتاب والحكمة» ثالثا. وقد قال رسول الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم امتثالا لأمر ربِّه: «بلغوا عني ولو آية».

أمَّا الذي ضُمن لهم فالنصر والاستجابة، والتمكين في الأرض، والظهورُ على العدو، والسعادة في الأولى والآخرة... لكن، بشرط أن يبدؤوا هم، فيعلنوا حسن النية، ويستجيبوا لأمر الله طواعية، فيأتمروا بأوامره طواعية، وينتهوا عن نواهيه بطيب خاطر.

ألم يقل جلَّ من قائل: «وما النصر إلاَّ من عند الله»، وقال: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم...»، وقال: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم».

لكنَّنا للأسف اليوم نجد الكثير من الهيئات، والجماعات الإسلامية،

في شرق الأرض ومغربها، يملؤون الدنيا هرَجا ومرجا، ويشغلون عقول الناس وطاقاتهم، وأوقاتهم، وأموالهم... بوعدٍ كاذب، فيبشّرون بقرب النصر للمسلمين، وبالحكومة الإسلامية، وبالتمكين القريب... ثم إنهم، مع ذلك، لم يهتموا كثيرا بما طُلب منهم، فلم يقتربوا من الله، ولم يفرُّوا إليه، ولم يقيموا الليل خضوعا وبكاء، ولم يصوموا النهار، ولم يتصدَّقوا، ولم ينشروا روح المحبَّة والتسامح والعفو بين المسلمين، ولم يهتموا بفتح المدارس لمحاربة الجهل، ولا بتأسيس المصارف الإسلامية اللاربوية، ولا بإعداد الجامعات المتميزة...

ومما يلاحظ في الجزائر اليوم، أنَّ جميع الأحزاب الإسلامية لا تملك مدرسة خاصَّة واحدة، ناهيك أن تفتح المئات من المدارس، شأن جمعية العلماء المسلمين من قبل... بل إنَّ جمعية العلماء المسلمين نفسها تقاعست عن إرشاد الناس وتعليمهم، واكتفت بمظاهر لا تسمن ولا تغني من جوع...

إذن، فالمرجعية المنشودة بإذن الله تعالى لا تسأل عن النصر، بل تسأل عن الصبر، فلنتق الله، ولنكن مع الصابرين.

المقالة الدمشقية 09

دموع سخينة على أطفال بلادي

جلستُ في حديقة من حدائق دمشقَ الفيحاء، الاعب ولديَّ، وأتعلَّم منهما معنى السعادة ومعنى البراءة، غير أنّي بعد برهة سافرتُ بخيالي إلى أرض بلادي، أسائل الزمان والمكان، عن مَعاني الطفولة، والعطلة، والراحة... فاشتطَّ بي عقلي، وحملني كلَّ محمَل، ورسم أمام ناظري صورة أطفال أبرياء يلعبون بكلِّ شيء إلاَّ باللَّعب، ويغشون كلَّ نادٍ إلاَّ ساحات اللعب...

فدمشق منحت لأطفالها في كلِّ حيٍّ ساحةً أو أكثر، تلتقي فيها العائلاتُ بأريحية وهناء، كأنهم إخوان «على سرر متقابلين»... فوهبتْ بذلك للبراءة هدايا ثمينة تحمل عنوان: النزهة، والعطلة، والفسحة...

فتكاد لا تبصر صبيًّا يزاحم السيارات، ولا طفلا يلاحق طاولات «الدخان»، ولا بنتا تتسوَّل بين العتبات... إلاَّ ما شذَّ... والشاذُّ يحفظ ولا يقاس عليه... رغم أنَّ سورية - هذه الأيام - تعرف أزمة مادية خانقة.

أمَّا في بلادي، فقد أصبح الأب والأمُّ يخافان العطلةَ، ويحمدان غِبَّ المدرسة، لا لأنها تمنح الأخلاق وتضمن العلم، لكن، لأنها تريح الأسرة والشارع من صراخ الأطفال، ومن حماقات المراهقين...

وآخِر نفَس للطفولة في بلدي لفظ في السنين الحمراء، حتى صار الواحد من الفلذات الزغب من أبنائنا يَحسب الرعد قنبلة، ويخال البرق ناراً... فتجد الكثيرين منهم يُعانون مِن أمراض الخوف، ولا يضرمون المفرقعات إلاَّ بالقدر الذي ينسيهم هول الاغتيالات، والتفجيرات...

قطعتْ عليَّ زوجتي رحلةَ مخيلتي، فساءلتني: ما دهاك؟

قلت: أمرٌ جلَل، فإنَّ من أشدِّ أنواع الشقاء أن تكون حزينا وكئيبا في زهرة العمر، وأشدُّ منه أن لا تجد من يَبكيك ويتألَّم لألمك، فتشيب وأنت في العقد الأوَّل من عمرك، وتبرز التجاعيد على وجهك وأنت في العقد الثاني،

ثم تتمنى الموت وأنت لمَّا تتجاوز الثلاثين... ولا تملك إلاَّ أن تردِّد مع زهير بيته المشهور، والذي يحفظه كل من عايش الفتن: «سئمت تكاليف الحياة...»، لكن باستبدال الثلاثين بالثمانين.

ولعلَّ ما يزيدني ألما، أنَّ خيرات بلادي، وجنات بلادي... لا يحدُّها حدٌّ، ولا يدانيها ندٌّ... فإنَّ، آخر من يستمتع بريعها هم أطفال بلادي... وبخاصة إذا كانوا من عائلة «محافِظة» على الدين، تَعاف العريَ، ولا تغشى الأماكن المشبوهة... فلا هي تتمتع بالشواطئ، ولا هي ترتاد المنتزهات...

أنا لا أستعجل، كبعض الناس، ولا أدعو أن يُفرض الحجاب فرضا على كلِّ النساء، مثلما هو الشأن في إيران... ذلك أنَّ الحجاب إيمان وقناعة، قبل أن يكون لباسا وستراً... لكنني، بأضعف الإيمان، أدعو إلى احترام هؤلاء وأولئك، فأطفال المحجَّبة لهم الحقُّ في حياة سعيدة، وأطفال السافرة كذلك لهم الحقُّ في حياة رغدة... والميزان في ديننا، أنه «لا تزر وازرة وزر أخرى»، و«كل نفس بما كسبت رهينة».

فيا أيها الساسة، ويا أيها المستثمرون، ويا أيها المثقفون... هلاَّ نظرتم نظرة جديدة للبراءة من أبناء وطنكم... فهل منكم رجل رشيد، ينافح عن حقِّ الطفل، ويرسم الابتسامة في شفاه الطفل، فيبكي لبكاء الطفل، ويفرح لفرح الطفل...

ثقوا أنَّ للجنَّة أبوابا، ومن أوسعها بابٌ أعدَّه الله تعالى لمن يُدخل السرور في قلب الأطفال... ألا فلتكونوا ممَّن يغشاه، وليكن أبناءُ بلدي ممَّن يسعد في الدنيا والآخرة... وما ذلك على الله بعزيز...

ألا ما أصدق أحمد مطر وهو ينشد:

لا تثقي بما روى التاريخ يا صديقتي

فنصفه هلوسة..

ونصفه خطابة..

اطفالنا ليس لهم طفولة

سماؤنا, ليس بها سحابة

نساؤنا.. ما زلن في ثلاجة الخليفة

عشاقنا..

يستنشقون وردة الكآبة

كتّابنا, يحاولون القفز كالفئران

من مصيدة الرقابة..

لا تثقي, يا صديقتي

بكل ما تقوله الحكومة

فعزفها مكرّر..

وصوتها نشاز..

نحن شعوب تجهل الفرح

أطفالنا ما شاهدوا في عمرهم

قوس قزح..

المقالة الدمشقية 10

سذاجة الإلحاد

هل يوجد إلحاد خالص؟

هذا ما فكّرتُ فيه مليًا، وحاولتُ أن أحرِّك عقلي ليجيب على هذا السؤال، فلم أستطع... ذلك أنَّ كلَّ إلحاد يؤول لا محالة إلى شرك، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الإنسان ضعيف، يعتريه المرض، والفاقة، والانهزام، والقلق... فيحتاج إلى قوَّة يلوذ إليها، ويستمدُّ منها المدد والعون، فإن لم تكن هذه القوَّة حقيقية «الإله الحق»، بغضِّ النظر عن اسمه؛ كانت زائفة، فاتخذت شكلا آخر، مثل: المادة، والعقل، والبشر، والعصبية...

ولذلك كان الإلحاد سذاجة وصبيانية في التفكير، وكان ادعاءً وزعما لا تسنده أدنى حجَّة أو أثارة من علم، حتى وإن كانت واهية... إنه محض ادعاء، ومجرَّد افتراء.

يقول أحد الملحدين في غرور وصلف: «لو أردتُ من نفسي وعقلي أن يشكّا لما استطعتُ، ولو أنِّي نفيتُ إيماني بالقول لَما صدَّقتُ أقوالي، فشعوري أقوى من كلِّ أقوالي. ماذا لو أنَّ إنسانا قال: إنه لا يحبُّ نفسه، أو لا يحبُّ الحياة؟ هل يصدَّق هو كلامه؟ هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو إحساسنا بها بالكلام؟».

إنَّ الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ. كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية، التي لا يمكن أن تضعها أو تشكَّ فيها الكلمات، التي قد تجيء غامضة أو عاجزة؛ لأنَّ فورة من الحماس قد أطلقتها. إنَّ إيماني يساوي: أنا موجود إذن أنا مؤمن، أنا أفكِّر إذن أنا مؤمن، أنا إنسان إذن أنا مؤمن»

ومع ذلك بقي هذا المتعجرف ملحدا، وساق الكلمات التي خادع بها فطرته، وهو ناطق بهذا الخداع والادعاء.

إنَّ العقل يقوم على جملة من المبادئ والثوابت، لا يحيد عنها، فإن هو نفاها نفى التفكير كلية، ومن جملة هذه المبادئ يذكر العلماء:

- مبدأ عدم التناقض
- مبدأ العلية
- مبدأ الغائية
- بطلان الرجحان بلا مرجِّح
- مبدأ عدم التسلسل
- مبدأ عدم الدور

والقول بالإلحاد ينفي هذه المبادئ جميعها، وينسفها نسفا، وينزع من الحياة معنى «المعنى»، ويحيلها إلى فوضى عارمة، لا نظام فيها، ولا مقدِّمة ولا نتيجة، ولا أثر ولا مؤثِّر. قال تعالى مستنكرا هذا الجحود: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحقُّ»، فإنَّ أبسط إنسان، بل إنَّ صبيا في وقت لعبه ولهوه، لو قلت له: إنك عابث، ولا معنى لما تفعل؛ فإنه سيشتطُّ حنقا وغضبا، وسيدافع عن «معنى» أفعاله، بل إنَّ بعض المجانين، مع الخلل العقليِّ الذي هم فيه، لو قيل لهم: أنتم مجانين، ولا «معنى» لما تفعلون، تراهم يدافعون - ببعض العقل الذي بقي معهم - عن مواقفهم، وينكرون على القائل مقولته.

لكن، ما الذي جرَّأ الإنسان مع ذلك أن يقول لمن خلقه، وخلق كلَّ شيء له، وكرَّمه، وحمله في البر والبحر، ومنحه نعمة العقل... يقول له في حماقة لا حدَّ لها: «أنا لا أؤمن بك، بل لا أظنُّ أنَّ ثمَّة إله؟»... فيدَّعي بالتالي أن هذا الوجود خُلق عبثا، بلا غاية، ولا نهاية... بل، بلا خالق خلقه، وإنما هكذا صدفة.

حقًّا إنَّ الإلحاد لساذج، وإنَّ الملحد لمغفَّل!.

المقالة الدمشقية 11

لا إله إلا الله، ميلادك الجديد

إنها كلمة التوحيد، وكلمة التقوى، والكلمة الطيبة، التي قال عنها ربُّ العزَّة: «أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربِّها».

هي أفضل ما نطق به اللسان عبر الأزمان.

وهي أعظم ما سمعت الأذن من كلام.

لا تنظرْ إليها كأيِّ جملة في الأدب، ولا كأيِّ فكرة من عالم الفلسفة، ولا كأيِّ خبر في التاريخ...

فهي ليست حروفا مجرَّدة، بدايتها: لام وألف... ونهايتها: لام ثم هاء...

إنها ليست كذلك، ولا ينبغي لها أن تكون كذلك... فلو وُجدت لغة أخرى، وصيغة غير التي ألف البشر، لنزلت «لا إله إلا الله» بها...

لكن، رحمة بنا، وشفقة على قصورنا وضعفنا، أنزلها الله سبحانه وتعالى من السماء العليا إلى الأرض الدنيا، بلساننا ولغتنا... فلا ينبغي أن تغرينا تلكم الرحمة والشفقة، فننزلَ بـ«لا إله إلا الله» إلى حضيض البشرية، والترابية، والدونية... ونسوِّيها بغيرها مما صاغه عقل إنسان.

«لا إله إلا الله» معبَرٌ من العالَم العلويِّ إلى العالَم السفليِّ، اعتنت بها العناية الربانية، فحملتها الملائكة - يتقدَّمهم روح القدس - آيات من الله العليم... لتودعها في قلب كلِّ نبيٍّ، من لدن آدم عليه السلام، إلى سيد الخلق محمَّد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم...

ثم كانت «لا إله إلا الله» أكبر مؤنس للبشرية في طريقها الوعر، المليء بالمكاره والأشواك، وأعظم طمأنينة للنفس؛ فإن هي آمنت داومت الملازمة، وأكثرت من ذكرها في كلِّ حين، وجعلتها منهاج حياة...

أمَّا من جحد منهم، فإنه شاء أم أبى سيتذكُرها أوان تحقُّق الهلاك، وتعيُّن الدمار، فلا تنفعه في دنياه ولا في آخرته.

ألم يقل فرعون في تلك اللحظة: «آمنت أنه لا إله إلاَّ الذي آمنت به بنو إسرائيل»، لكن، ولاة حين مندَم.

وستكون «لا إله إلا الله» معبراً للمرَّة الثانية، من العالم السفليِّ إلى العالم العلويِّ... من دار الفناء إلى دار البقاء...

فكلُّ إنسان، مِن عهد آدم عليه السلام، إلى آخر إنسان في الوجود، سترافقه «لا إله إلا الله» في رحلته الشاقَّة يوم الحساب، وستكون شاهدا له إن هو وفَّاها حقَّها، أو شاهدا عليه إن ضيَّع معناها.

«لا إله إلا الله» لا تحفظها الألسن كما تحفظ بيتا من الشعر، ولا تحلِّلها كما تحلِّل معادلة رياضية... بل الواجب عليها أن تعلَمها علم اليقين، وتعيَ مداها، وتسبر غورها، وتفكِّر في مُنشئها، وتنظر في منتهاها... عين اليقين... ولذلك لم يقل الله جلَّ جلاله: «فقل: لا إله إلاَّ الله»، ولكنه قال: «فاعلم أنه: لا إله إلا الله».

لا يشترط في هذا «العلم» أن يكون صاحبُه حاصلا على شهادات عليا، ولا أن يكون مؤسِّس نظريات كبرى، وإلاَّ لشقَّ على الناس أمر الدين، ولدخلوا في الجنَّة كما يدخلون في جامعة راقية...

لكن، هذا «العلم» بـ«لا إله إلا الله» أساسه: وعيٌ صادق، وعقل حاضر، وقلب نظيف... قد تحظَ به العجوز، وقد يدركه الزمِن، وقد يندُّ عن العالِم...

أمَّا إذا علِم العالم حقيقة «لا إله إلا الله» فإنه سيرتقي مراقي لم يصلها أحد قبله إلاَّ الأنبياء، «كذلك إنَّما يخشى الله من عباده العلماء».

وإذا أردتَ أن تعلِّم شيئا لأحد، أو لقوم، فيخلد لك الأجرُ، ولا يتوقَّف عدَّاد حسناتك إلى يوم الدين، فاجتهد أن تعلِّمهم «لا إله إلا الله».

خذ طفلا صغيرا، واجلس إليه، وعلِّمه أن تكون أولى كلماته، وأحلى كلماته، وأبدع كلماته: «لا إله إلا الله».

لا تقل: إنها ستصعب عليه؛ ذلك أنَّها ستصادف فطرته التي فُطر عليها، «فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها»، وستكون له بمثابة شربة ماء بارد في قائلة صيف حار.

أروع ما سمعت أذنيَّ على الإطلاق: لسان ولدي الرطب، وشفاهه الغضَّة، وهي تقول متلعثمة: «لا إله إلا الله»...«لا إله إلا الله»...«لا إله إلا الله».

كلُّ النبيين، بلا استثناء، أمروا قومهم بـ«لا إله إلا الله»، قائلين: «يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»...

إنها حقيقة كونيةٌ لا مراء فيها ولا جدال: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاَّ نوحي أليه أنه لا إله إلاَّ أنا فاعبدون».

ومن الخطل والجنون أن نعتقد أنَّ نبيًّا أمَّنه الله في «لا إله إلا الله»، وأمره أن يحملها إلى قومه، لا يملك لها تحويلا، ولا نقصانا، ولا زيادة... ثم يخون هذا النبي أمانتَه، ويدَّعي أنَّه هو «الإله»... ذلك أنَّ من وعى حقيقة «لا إله إلا الله» عرف قدره وعرف قدر ربِّه، فاستحال أن يجاوز قدره فيرفعها إلى مقام الألوهية، أو ينزل بقدر ربه إلى مقام الترابية...«ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، ثم يقول للناس: كونوا عباداً لي من دون الله، ولكن: كونوا ربَّانيين، بما كنتم تعلمون الكتاب، وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون».

ولذلك، كان اليهود أعتى أعداء «عزير»، ذلك أنهم قالوا: «عزير ابن الله».

وكانت النصارى ألدَّ أعداء «المسيح»، بقولهم: «المسيح ابن الله».

فلو قام المسيح اليوم، وواصل رسالته، لكان أوَّل شغله، وأفضل عبادته، أن يحارب قوماً ألَّهوه، وكذبوا عليه، وأنزلوه منزلا يتحرَّج به أمام الربّ يوم الحساب، حتى يقولها صريحة: «سبحانك، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي به علم، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي، ولا أعلم ما في نفسك، إنك

انت علام الغيوب»، ثم يكتبها شعارا إلى يوم الدين، عنوانه «لا إله إلا الله»، فيقول: «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أن اعبدوا الله ربِّي وربَّكم»، كلُّ هذا، جوابا على سؤال ربِّ العزَّة، الذي جاءه تبكيتا للضالين والمكذِّبين: «أأنت قلت للنّاس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله».

ومن بديع معاني هذه الآية، ما فتح الله به عليَّ، ولم أقرأه في كتاب، أنه تعالى قال: «من دون الله»، ولم يقل: «مع الله»... في حين أنَّ النصارى يقولون ثالث ثلاثة، ولا ينفون الله... ذلك أنَّه سبحانه إذا ألِّه غيرُه استغنى عن المؤلِّه، فهو أغنى الشركاء عن الشريك، فإمَّا أن يكون هو ولا أحد، أو لا يكون إذا كان معه أحد...

يقول الشيخ محمد الغزالي: «وشهادة التوحيد، حين ترسلها في ساحة الحياة، فأنت بهذه الشهادة لا تطلق خبرا هو بعض ما يتداوله الناس من كلام، أو يتناقلونه في حديث.

إنها شهادة تعني إحقاق حقٍّ، وإبطال باطلٍ...

إنها شهادة تعني أنَّك قرَّرت المضيَّ في الحياة وفق خطَّة تنابذ الشركاء العداء، وتقرُّ لله بالوحدة...

إنك بهذه الكلمة أبديت وجهة نظرك في قضايا كثيرة تشغل الناس ليلا ونهارا...

إنَّ الشهادة ليست فقط دلالة إيمان، بل هي معالنة برأي، وبداية لسلوك».

أخي المؤمن، ركِّز جيِّدا، وتطهَّر، ثم انطق بكلمة الشهادة، وقل: «لا إله إلا الله» بملء فيك، وحاول أن تجد حلاوتها في قلبك، وتتملَّى سريان لذَّتها بين أضلعك، ثم استحضر «قضيةً» تشغل ذهنك هذه اللحظة، أو «مشكلةً» استعصى عليك أمرها... وسلِّطهما على منهج «لا إله إلا الله»، ثم أوجد الحلَّ أو الحلول لها، بناء على هذا المنهج الفريد...

ثم توكَّل على الله، واستغفره من ذنوبك، واشرع في تطبيق الحلِّ على أرض الواقع، وانزل به إلى ساحة الحياة... واحذر أن تحيد عن منهج «لا إله إلا الله» قيد أنملة...

فأنا على يقين أنَّ «قضيتك» ستجد أفضل حلٍّ، وأنَّ «مشكلتك» ستنفرج بإذن الله تعالى... لكن، فقط لا تستعجل، ولا تقنط... واحرص أن تلازم قول «لا إله إلا الله»، واعتقاد «لا إله إلا الله»، والعمل تحت راية «لا إله إلا الله».

بشرى لك لقد ولدتَ من جديد...

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم»

«لا إله إلا الله على ديني، وعلى نفسي، وعلى عقلي... وعلى جميع جوارحي».

«لا إله إلا الله على أهلي، وعلى أولادي، وعلى مالي»

«لا إله إلا الله على كلِّ شيء أعطانيه ربِّي».

«لا إله إلا الله ربُّ السموات السبع، وربُّ الأرضين السبع، وربُّ العرش العظيم».

«لا إله إلا الله أحصِّن بها يميني وشمالي، وفوقي وتحتي، وأمامي خلفي».

«لا إله إلا الله حصنك ربِّي، ومن دخل حصنك أمن عذابك... ربِّ دخلتُ حصنك بـ«لا إله إلا الله» فأمِّنني في روعتي، واستر عورتي، واكشف كربتي».

«لا إله إلا الله على جميع خلق الله...»فإن تولوا فقل: «حسبي الله عليه توكلت، وهو ربُّ العرش العظيم» (ثلاثا)

المقالة الدمشقية 12

من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنَّة، وإن زنى وإن سرق

صدقتَ يا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، بهذا أؤمن، وبهذا ألقى ربِّي... وحاشاي أن أردَّ كلام نبيِّك وصفيِّك محمد، يا ربِّ...

وأقولها بملء فيَّ: «لا إله إلا الله»... وأعتقد جازما أنَّ «من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنَّة، وإن زنى، وإن سرق»...

لكن، كيف أفهمها؟

وما معناها؟

ما أبلغك يا رسول الله، فإنَّك ربطت بين مقدِّمة ونتيجة مستحيل أن يجتمعا، على شاكلة «لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط».

من قال «لا إله إلا الله» موقنا بها، معتقدا معناها، مدركا مداها، فإنَّه يعلم يقينا أنَّ الله الذي لا آمِر سواه، ولا ناهٍ سواه، ولا مطاع سواه... نهى عن الزنى وحرَّمه، ونهى عن السرقة وحرَّمها... وشدَّد الوعيد على السارق فقال: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا، نكالا من الله»... وربط بين الزاني والمشرك، في قوله: «الزاني لا ينكح إلاَّ زانية أو مشركة» ثم نهانا أن نشفق عليه، حين إقامة الحدِّ فقال: «ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله».

من قال «لا إله إلا الله» مستحضِرا هذه المعاني مجتمعةً، كيف يمكنه أن يجرُأ على الله فيعصيه، أو يجعل «شهوة المال» أو «شهوة النساء» شريكا لله، فيطعهما ويعصيه، ويقول لشهوته: لبيكِ... ثم يقول لربِّه: سأعصيك في هذه، وأرجو رحمتك بعدها!

إنَّ هذا مستحيل، ولذا فإذا أردتَ أن تقلع عن المعاصي، فقل: «لا إله إلا الله»... موقنا، معتقدا، مؤمنا... فإنك قد أتيت الأمر من بابه، وصلَّيت في المسجد بمحرابه... فبشرى لك الإقلاع عن المعاصي...

ثم من قال «لا إله إلا الله» وقد سبق له أن زنى أو سرق، استجابة لتزوة، أو بعد فورة شهوة... فإنَّ «لا إله إلا الله» بمعناها، ومدلولها تدفع بقائلها إلى التوبة النصوح، وإلى الندم الشديد، وإلى العزم على الإقلاع... فتنشطه من عقاله، ويتحوَّل إلى عبد لله مطيع، وإلى مبغض للزنى والسرقة وجميع المعاصي... يتمنى أن لو ألقي في النار، وعذِّب وأحرق... على أن لا يعود إلى المعصية...

فإذا كنت قد عصيت من قبلُ، أو إذا كنت قد اقترفت زنى أو سرقة... فاجلس إلى نفسك في خلوة، وتطهَّر، واستحضر معاني «لا إله إلا الله»، ثم ركِّز جيدا، وقل: «لا إله إلا الله»...«لا إله إلا الله»...«لا إله إلا الله»..وابحث بعقلك في مداها وأبعادها، وفي منشئها، ثم تُب توبة نصوحا، بما تقتضيه التوبة النصوح من تنصُّل عن التبعات، وعزم على عدم العود، ورد للحقوق...

ثم من معاني هذا الحديث، أنَّه قيل في بداية الإسلام، قبل أن تُفرض جميع الفرائض، وقبل أن تحرَّم جميع المحرَّمات، فمن قال «لا إله إلاَّ الله» ثم مات قبل ذلك، دخل الجنَّة، وهي شفيعة له عند ربِّه، وقد روي هذا المعنى عن جملة من العلماء.

اجعل «لا إله إلا الله» حصنك، وقل:

«لا إله إلا الله محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلَّم»...

تجليات كنديّة

رمضان 1431هـ - جويلية 2009م

تجليات كندية 01

من الذهب الأسود... إلى الماس الرمادي

منذ أزيد من نصف قرن كنا نغطُّ في نوم عميق، فوق سرير من البترول الدافئ، ولم نكن نعي... فجاءوا بعقولهم، وكانت عقولنا يومها - ولا تزال - محنَّطة، بليدةً؛ تهوى المختصرَات، وتعشق المفصَّلات؛ بلا طائل ولا حائل...

جاؤوا، فحفروا، واستخرجوا، ثم استغَنوا... وعاودوا الكرَّة، فحمِّلوا الملايير كيما يبنوا مُدنا على شاكلة الدوحة أو الرياض أو دبي... فغادروا... وتركونا يتامى، لا أب ولا أمَّ ترثي حالنا..فما أبِهوا ولا ندموا، لكنَّها لغة الحراك والصراع والصدام (على رأي هنتنغتون).

وكان لجزائرنا الحظُّ الأوفر من الاستنزاف، فكلُّ خيراتها لم تكن لها، ولن تكون لها إلاَّ أن تبدَّل الأرض غير الأرض والعبادُ غير العباد، سواءً في ذلك استغنت أم فقرت، قويت أم ضعفت... كلّ خيرات أمِّنا لغير أبنائها، فحظهم منها الجوع والظمأ، ثم الفتن والأنهر من الدماء...

اليوم، ولا تزال الصحراء ملكا لمالكها، ممَّن له العقل والعلم والمعرفة والنظام... ليس لنا منها خير ولا سهمٌ... فلا البترول بترولنا، ولا الغاز غازنا، ولا الشمس شمسنا، ولا الماء ماؤنا...

اليوم، بدأت مرحلةُ نزيف جديد، هو نزيف الماس الرمادي: شبابُنا، عقولُنا، فكرُنا، خلايانا المخيَّة، مساحاتُ منطقنا وتدبيرنا، أعظم ما خلق الله برحمته لنا... إنها تتسلَّل من البلاد في صمت وهدوء، كأنَّها الأسود المستسلمة للقدر، فلا حبيب ولا طبيب، ولا مجيب ولا رقيب...

في المطار المئاتُ من الكوادر، مِن مختلف التخصُّصات والتكنولوجيات، ومن شتى المناطق والجهات، مع أزواجهم، وأبنائهم، وبناتهم... مسافرون حازمون، ومجدون قاصدون... للعمل هنالك، إلى حيث يعرف العارفون لهم قدرا، ولا يُضيعُون لهم أجرا...

وعلى صفحات جرائدنا نبكي ظاهرة «الحرَّاقة» (بقاف مثلثة) وهي بحقٍّ ظاهرة خطيرة، ولكنَّنا أحيانا نبني من الحبة قبَّة، والحق أنَّ «الهروب الأخطر و«النزيف الحضاري» يتمثل في الهاربين رسميًّا في وضَح النهار، المغادرين بعقولهم ليشيدوا حضارات أخرى، ولا يقتصر على الحراقين المتسللين في جوف الليل، ليكونوا أسفل البناء وفي ضحضاح تلكم الحضارات...

ومع ذلك، فالكلُّ يعنينا ويغيظنا، والكلُّ يملك من الدهاء ما يجعله قارِب نجاة لوطننا، لا أن يكون محيط غرق لبلادنا...

أخي الحراق، عبْر البر أو عبْر البحر، بالطريق الرسمي أو بالصورة الملتوية، لا ألومك، ولا ألوم الظروف، ولكن ألوم نفسي أنا، وذاتي أنا، ووجداني أنا...

أنا الذي لفرط غفلتي «ضيعتُ اللبن صيفا»، لا ألوم الآخَر، ولا الوهم، ولا الغموض... وإنما أصبُّ جام غضبي وأصلْت جيش غيظي على الذات...

أخي، فكِّر معي، حتى وإن سافرتَ إلى الأبد، فكِّر معي في إعادة الأمل لبلدي، عسانا يوما ما، يدا بيد، بل عقلا بعقل، وفكرا بفكر، وإيمانا بإيمان... عسانا نُشعل شمعة أولى للحضارة فوق أرضنا، وعسانا نشع نورا بالبترول الذي تحت أرضنا... نفعل ذلك في روية، وتخطيط، ودهاء...

يومها فقط تضيء شمس الحضارة بلادَنا ولو بعد حين، بعد قرون من الأوهام والأحلام والأسقام...

أخي...

تجليات كنَدية 02

جزائرية... لا شرقية ولا غربية

في أرض المطار تتمايز النفوس، وتُستخلص من هنالك الدروس... البعض قرَّر أن يكون غربيا، قلبا وقالباً... والبعض قرَّر أن يتحوَّل شرقيا، جسما ولبًّا... البعض مُسح بمسوح الغرب، رغم أنه لم يغادر الوطن يوما... والبعض لبس لَبوس الشرق، ولم يعرف بوابات المطار، ولا مخارج الحدود أبدا...

بين هؤلاء وأولئك أطياف وأطياف، يتعذر على النبيه إدراكها ومعرفتها، بله إحصاؤها وعدُّها...

قلَّة قليلة قرَّرت - بل لعلَّها رغما عنها فعلت - أن تبقى جزائرية، جسما وروحا، ظاهرا وباطنا...

لكن، كيف نميِّز هؤلاء من أولئك؟

في كتاب الله فصلُ الخطاب، وعينُ الصواب: «ولتعرفنَّهم في لحن القول»... تتحسَّسهم في اللسان والنطق أولا، ثم في اللغة واللكنة ثانيا...

بالقرب مني في صف الانتظار، امرأةٌ - يقينا نبتَ لحمها في وطني - على ذراعيها صبي في العامين ولا يزيد، وهي تلاعبه وتسكته، وتُضحكه وتبكيه، وتكلِّمه وتغنِّي له... كلُّ أولئك بلغة فرنسا العجوز، ومن جملة ما قالت له، مشيرة إلى لسانه، وهي تعلِّمه: «هذا لساني...» لكن بالفرنسية لا بالعربية: «voici ma langue»؟!

كرَّرتها مرارا، وبين المجاز والحقيقة مسافات ومساحات، بينهما تباين وتشابه... إنها فرنسية اللسان والجنان...

واللباسُ كذلك رمزٌ للتميُّز والتمييز... به تعرف هؤلاء وتكشف أولئك... ممَّن قرَّروا أن يغيِّروا كلَّ شيء: المخبرَ والمظهرَ، الشكلَ والمحتوى... ففعلوا وغيَّروا...

ولقد علمنا أنَّ مدرسة إعداد إطارات المستقبل في بلدي تمرُّ عبر هذه السكَّة الحتمية... فإذا قررتَ أخي أن يتحوَّل أبناؤك إلى جيل قيادي فالزَم نصائح العمِّ سام:

أ. «فقط علِّمه كيف ينطق الفرنسية ويلحنها، ولا عليك...»

ب. «لا تطلب اللغة السليمة، ولا تسأل عن قاموس فولتير وهيغو بالضرورة... لكن، المهمّ أن ينطق بها، والباقي على حسابنا»... (كما علَّمتنا بعض الإعلانات التجارية أن نقول...)

إذن، إنهم قرَّروا، ونفَّذوا... فلم يبق لك أخي سوى أن تقرِّر وتنفِّذ...

لكن، عفوا، معذرة.. حاول أن تفكِّر ولو للحظة:

- أين هو الجزائري الجزائري...؟

- أين هو المواطن الأصيل الحضاري....؟

- أين الذي آخى النخلة قرونا، وألف البرنوس عصورا، ونطق الدارجة والبربرية والفصحى دهورا...؟

- أين الذي بنى من لحمه وعظمه دولا، ودشَّن بدهائه وعبقريته أسطولا، فلم يجهل لغته ولا تنكَّر لذاته...؟

- مَن للجزائر قبل اليوم، واليومَ، وبعد اليوم...؟

أسئلة أوجهها للذين قرَّروا فهدموا السدود، وللذين دفعوهم أن يقرِّروا خارج الحدود، بالتفنن في الصدامات والانهزامات، وبالإبداع في السخافات والتفاهات...

وداعا أخي... الطائرة قريبا ستقلع، عسانا نعُدْ يوما ما إلى أرض الوطن... وإلى ذلكم الحين، أستودعكم الله، وأسأله تعالى أن يحفظ وطني، ويفرِّج عن أمَّتي...

تجليات كَندية 03

في جامعة McGill

اسم كبير لجامعة لها سمعة عالمية، مصنَّفة دوليا في المراتب الأولى، حصدت ثمانية جوائز نوبل في مختلف التخصُّصات... كان يومًا سعيدا، وكان يوما مشهودا، يوم زيارتها... وقد شدَدت أنفاسي، وتصوَّرت أني سأطَّلع على أمر خارق للمعتاد، وفوق المألوف، فحملت بين جوانحي جملة من الأسئلة:

- كيف تكون عماراتها، ومدرَّجاتها، ومخابرها...؟
- ترى، ما الذي يميزها عن جامعاتنا المبثوثة، من طنجة إلى جاكرتا؟
- كيف السبيل إلى الدخول إليها؟ لعلَّ الأمر سيكون صعبا أو مستحيلا؟

على متن سيارة صغيرة، رافقتُ أخوين كريمين، أحدهما خبير في شركة لصناعة الأدوية، والثاني يدرِّس في هذه الجامعة، ويحضِّر الدكتوراه، بقسم علوم الأعصاب... وما هي إلاَّ دقائق معدودة حتى توقَّفنا وسط المدينة، وإذا بي محاط بعمارات قديمة، وبنايات عتيقة، مشتَّتة وموزَّعة على الشوارع الرئيسة لمونتريال، مفتوحة للمارَّة وللسيارات...

فقيل لي: هذه هي جامعة «ماك جيل»...

ثم قصدنا المدخل الرئيس، وإذا بنا نقطع حديقةً ذات أعشاب زاهية، وأشجارٍ فارهة، تحيط بها الملاعب الرياضية من كل جهة...

دخلنا فلم يوقفنا بوَّاب، ولم يسألنا أحد: أين البطاقة؟ أين الإثبات؟... وتذكَّرت يوم أردت ارتيادَ مكتبة معهد من معاهدنا، بعد سنوات من تخرُّجي فيه، فقطع رجل، كأنه شؤم الطالع، طريقي، ومنعني بجفاء وسفاهة من تحقيق مطلبي... وقال: «لا مرحبا بالبرَّانية هنا»...

ثم قصدنا مكتبة الدراسات الإسلامية في «ماك جيل»، وهي بنايةٌ أثاثها وأبوابُها ونوافذُها وأرففُها من العهود الغابرة، لكنَّها، جميلة، مرتَّبة نظيفة،

لاشيء فيها، ولا كتابة عليها... فلم يعترض سبيلنا أحد، بل قيل لنا: يمكن لكلِّ إنسان أن يدخل أيَّ مكتبة في الجامعة، ويطالع ما يشاء، دون حدود... تحت مسمَّى «الضيف»، وليس عليه إحضار ترخيص، أو ورقة خاصة... فالعلم مشاع هنا، والضيف مرحبا به هنا...

ثم عرفنا أنَّ المكتبة تحوي ما يقرُب من مائة ألف عنوان في العلوم الإسلامية، بمختلف اللغات، والتخصُّصات... وفي الإمكان البحث في الفهارس الإلكترونية عبر الأنترنات، للطلبة المسجَّلين...

فقط، اجلس بهدوء، وخذ بيدك أيَّ كتاب شئت، فالأرفف مفتوحة... ثمّ طالِع، وأبدِع، وابحث، وطوِّر... وإذا وصل وقت الصلاة، فثمَّة مسجدٌ قريب من مبنى المكتبة، وإذا ارتويتَ علما وأنهيتَ مهمَّتك، لا تُعد الكتاب إلى مكانه، فالعمَّال جاهزون لذلك...

زرنا بعد ذلك معهد الديانات، ومعهد علوم الأعصاب... وشاهدناها من الخارج لأنها كانت مغلقة لعطلة نهاية الأسبوع، أمَّا المكتبة فلا تُغلق أبوابها في العطل الأسبوعية ولا في المناسبات...

يستعلم القارئ ويسأل: ما هي بطاقة تعريف هذه الجامعة، يا ترى؟

هي جامعة أسسها الانجليزي «جيمس ماك جيل» سنة 1921م، وقد كانت في الأساس بناية واحدةً، هي دارُه التي تبرَّع بها، وأقيم فيها معهد متوسِّط «كولج»، ثم كبُرت ونمت بالتبرُّعات السخيَّة من الأثرياء، حتى صارت أعرق جامعة كندية، وأكثرها انفتاحا على العالم، فهي تفتخر أنها تأوي 34000 ألف طالب، من 160 دولة، مقسَّمين على أحد عشر معهدا، وثلاثمائة برنامج دراسيٍّ وبحثيٍّ... وداخِل الجامعة أربعة مستشفيات بحثية، تخرِّج سنويا حوالي ألفَ طالب وباحث في العلوم الطبية والبيولوجية...

الطالب هنا - في الدراسات العليا - يسخُون عليه بمنح تتجاوز أجرة الأستاذ الجامعي عندنا بعدَّة مرات... ولسان حالهم يقول: تعلَّم ولا عليك.

توقَّفتُ برهة، وسألتُ عن حالنا وحالهم، عن مآلنا ومآلهم...

سألت عن أثريائنا، أين يذهب مالهم؟ وعن أوقافنا، أين تُصرف؟ وأين ما تعلَّمناه عن السخاء على العلم في ديننا الحنيف؟ وأين ذابت حضارتنا التي

كانت في هذا المستوى وأكثر؟

وتساءلتُ عن ملايير البترول، أين تُصرف؟ وكيف تُصرف؟

وعن مخابر البحث في جامعاتنا، كيف صارت مصيَدة للشرَه والطمع، ووكرا للفئران والجرذان، ولم تُضف للبحث العلمي شِروَ نقير، إلاّ ما شذّ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه؟

لعلّي أتوقف هنا، كي لا أتجرَّع المرارة أكثر... وكي لا يفقد إخواننا وأساتذتنا في الجامعات جرعة الأمل فنخسر ... وإني أفتح نافذةً للأمل، لمن كان في قلبه ذرَّة من إيمان، وذرَّة من حبٍّ الوطن... مِن هنا يبدأ التغيير، من داخل النفوس...

ثمة أمل... ثمة أمل... ثمة أمل...

تجليات كَندية 04

مملكة الكتاب أو مكتبة كِباك (Québec) الكبرى

الكتاب مفتاح كلِّ حضارة، وبوابة كلِّ ثقافة، ومجلَبة كلِّ فائدة، ومخزن كلِّ معرفة، وذاكرة كل أمَّة... فهو الصديق الذي لا يُمل، وهو الوفي الذي لا يُكل..ولذا قالوا وصدقوا: «وخير جليس في الأنام كتاب».

هذه المرة كانت وجهتنا مكتبة كبَاك (Québec) الوطنية، دخلناها عبر نفق المترو، ومن جهة جامعة كباك في مونتريال (UQAM)..والعجيب حقًا أنَّ داخل كلٍّ من المكتبة والجامعة فتحة للمترو، بل إنَّ بعض أقسام الجامعة تقع في الأنفاق السفلية المحادية لأنفاق المترو...

المكتبة تُحفة في العمارة المكيَّفة والحديثة، زُجاجية بنسبة كبيرة جدًا... صُمِّمت لتلتقط كلَّ شعاع من الشمس تُغريه برودة كندا فيحوم حول حِماها، والشمس هنا مُتعة ونعمة نادرة وعزيزة...

هي بناية ذات سبع طوابق، كلُّ طابق مخصَّص لفنٍّ معيَّن، ولفئة معيَّنة، تعمل بفلسفة تسهيل الوصول «accessibility»، لكل الأعمار والأجناس والفئات، حتى المعوقين منهم والمبصِرين، الذين خُصِّصت لهم أجنحة محترمة، ومقاعد ملائمة، وكتبٌ ذات أحرف كبيرة جدا لقصيري النظر، وأخرى مكتوبة بالبراي لمن فقد نعمة البصر... والعبرة أن لا يحسَّ أحد بالاغتراب داخل مملكة الكتاب..

القسم السفليُّ من المكتبة مجهَّز للأطفال، دخلتُه أمشي الهوينا، مشتاقا إلى الصبا، وقلت: ليت الصبا يعود يومًا، فأبدأ طريق العلم من هذه التحفة البديعة، لكن هيهات يعود الصبا، والحمد لله على ما فات وعلى ما هو آت.

وقسمٌ أرضيٌّ للجديد من المجلاَّت العالمية، وللجديد من الكتب والمقتنيات... فلا يوضع شيء في أرفف المتخصِّصة حتى يكتشفه النهِمون،

ويعرفه العارِفون...

وطابق للآداب والعلوم الإنسانية، وآخر للاقتصاد والعلوم الإدارية، وثالث للعلوم التطبيقية والتكنولوجية... إلى أن نصل إلى الطابق العلوي المخصَّص للسمعي البصري، الذي يأوي الملايين من الأقراص المدمجة، والأفلام، والأشرطة... بجوار مكتبة للفنون الجميلة...

والملفت للانتباه أنَّ مقاعد المطالعة ليست على الشاكلة الصارمة التقليدية، لكنَّها أرائك أمامها طاولات زجاجية، مبثوثة هنا وهنالك، تطل على شوارع وساحات المدينة، بجوار حيطان من الزجاج يبلغ طولها العشرات من الأمتار... مقصدُهم من ذلك أن يعطوا القارئ انطباعا أنه داخل صالون لا في مكتبة، وأنه يشارك المارة الخضرة وجمال المدينة... كما لو كان في نزهة وفُرجة... فيدفعه ذلك إلى قضاء ساعات وساعات... بلا عياء ولا ضجر...

أين التسجيل؟ وأين البطاقة؟ ورخصة الدخول؟ والبوَّاب؟ وإشارات التحذير؟... وكلُ الموانع والعوائق؟

لا شيء من ذلك، فكلُ الناسِ، بلا استثناء، يدخلون المكتبة، في كلِّ وقت، بلا استثناء. ويطالعون في كلِ جناح وقسم، بلا استثناء. لا أحد يسائلهم أو يسأل عنهم أو يطالبهم بتسجيل اسمهم في دفتر، أو يضطرهم إلى إخراج بطاقة هويتهم...

كلُّ المواد مفتوحةٌ للجمهور، بنظام الأرفف المفتوحة، فليَمُدُّوا أيديهم لما يروق لهم، وإذا انتهوا فليعيدوه في مكانه، أو ليتركوه فوق الطاولة... كما يريدون.

طفل هنا، وعجوز هنالك، وشاب، وطالبة... كأنها عائلة كبرى، إمَّا يطالعون أو يستعملون أجهزة الكمبيوتر المفتوحة على الإنترنت، أو للبحث في الفهارس، أو لأغراضهم الخاصَّة... الجميع في تركيز عالٍ، سابحون في عالم الأفكار بلا حدود...

وقد شاهدتُ رجلا رنَّ هاتفه النقال، وفي أقلَّ من رمشة عين جاءته إحدى الفتيات العاملات بابتسامة واحترام، فطلبت منه أن يُسكته، فأسكته معتذرا ومبتسما، بلا خلاف ولا شجار.

يتكوَّن لدينا إحساس داخل المكتبة، وفي مونتريال كلِّها، أننا لسنا في مدينة غربية، بل في عاصمة عالمية، تموج فيها الأجناس والألوان والثقافات بجميع أطيافها، بلا حرج ... وإننا لنهزأ من فرنسا العجوز التي صنعت من الحجاب عاصفة للتعصُّب والتمييز العنصري... وما كندا بابنة لفرنسا في هذه، وما هي بعنصرية ولا إقصائية... إنها بحق بلد مفتوح ومنفتح...

أنهي مقالي، وقد صُفَّ بجدية كما تصفُّ الكتب على الأرفف... أنهيه من قسم الوثائق والمخطوطات، من ذاكرة كباك (Québec)... التي تمتد إلى أربعمائة عام فقط، أين منها حضارة أمَّة تغوص جذورها في فجر التاريخ، حضارة أمتنا وبلادنا...؟

الله أعلم، لكن علينا أن نُعيد النظر في كلِّ شيء: لنثبُت على الأصول والمبادئ، ونطوِّر الفروع والوسائل... وإني لأرى حضارة إسلامية جديدة قاب قوسين أو أدنى....

فاللهم مكِّن لدينك في أرضك، واجعلنا سببا للتمكين. آمين

تجليات كنَدية 05

تحت القبة البيولوجية

لا يملك المرء وهو يتجوّل داخل القبة البيولوجية (Montreal Biodome) إلاّ أن يستذكر قول الله تعالى: «هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه»؟!

هي قبّة بجوار القرية الأولمبية المشهورة، بمدينة مونتريال في كندا، أسّست سنة 1992، وقد زارها منذ ذلكم التاريخ أزيد من 14 مليون زائر من مختلف بلاد العالم.

إنها قرية تأوي الطبيعة الحقيقة لمختلف الأنظمة الأيكولوجية (eco-systems) في أمريكا وأفريقيا، بداية من الغابات الاستوائية، ونهاية بالمناطق الثلجية في القطب الجنوبي.

تفصِل بين قسم وآخر بواباتٌ محكمة الصنع، وفي طبيعة الله فوق أرضه ليس ثمة بوابة، ولا فاصل بين طبيعة وأخرى، وإنما هو عظيم إبداع الله، يهب لكلِّ قارّة، ولكل أرضٍ، أو بحرٍ، جوَّه وحيواناته ونباتاته... ولا يبغي بعضها على بعض.

وفي كلِّ قسم من أقسام القبّة تجسيدٌ واقعيٌّ لتلك البيئة، من حيوانات ونباتات، بكلِّ أنواعها: البرية والبحرية، الزاحفة والطائرة... كلها جمِّعت هنا، وتمَّ رعايتها، حتى لكأنها في موطنها الأصليِّ... ومما يجعلك تحسُّ بالانتقال، حقًّا لا وهما، من نظام إلى آخر، ذلك الطقس المكيَّف بحيث يكون حارا أو باردا، جافا أو رطبا، حسب البيئة، وحسبما ألفتْ تلك المخلوقات الرائعة؛ لأنك لو غيَّرت لها جوَّها لتبدَّلت، ولمات البعض منها... فلا مبدل لخلق الله، ولا مغير لحكمه.

وداخِل القبة، قسم إفريقية، جسِّدت فيه طبيعة مدغشقر، وهي من أكثر المناطق إثارة لإعجاب الزوار، وفي المقدِّمة حيوان الليمور البنِّي الجميل،

وهو يتسلَّق الأشجار بذكاء ورونق، ولا يأبه للحاضرين، لأنهم في نظره شيء من الأشياء لا غير.

المئات من الأطفال مع أهليهم، يتمتَّعون بهذا التراث البيئي العالمي، ويتعلَّمون حرفا حرفا، وكلمة كلمة، وجملة جملة... ثقافةَ الطبيعة، وأسماءَ النباتات والحيوانات، وأشكالَها، وخصائصَها، والفروقَ بينها... بأسلوب مبدع واقعيٍّ، فتجدُ الواحد منهم في الخامسة من عمره، عارفًا بالعشرات من مخلوقات الله، واعٍ بخصائصها... ولا ريب أنَّ الطالب الجامعيَّ في العالَم المتخلِّف، للأسف، يجهَل أقرب الحيوانات إلى بيئته، ولا يعلَم شيئا عن نباتات وطنه... فالفرق واضح، وللحضارة أسبابها، فهي ليست سحرا، ولا ادعاء، ولا هرطقة...

أمَّا المنكر الذي يقطِّع القلب إربا، داخل هذه القبة الغريبة، فهو غياب السؤال الحق: «من خلق هذا كلَّه؟» وهو تغييب الجواب الفصل: «الله سبحانه...»...

إنك لا تسمع شفة تنبس باسم الخالق الوهاب: «الله»، أو «God» أو «Dieu»... وحينها فقط يتوسَّع لديك مدلول الشرك، ويعظم في قلبك قبحُه، وتردِّد قول الربِّ العليم: «إنَّ الشرك لظلم عظيم»...

فكيف يُعقَل أن يسأل الواحد منا ومنهم: مَن هو هذا العالم الذي أبدع هذه القبَّة؟ فتفنَّن في جمع المخلوقات لها من شتى بقاع العالَم، واجتهد في ترتيبها، وتنظيمها، وإدارتها، وتحسينها...؟ كيف يُعقل أن يُسأل عن وهذا، ويعظم شأنه، ويرتفع قدرُه... ولا يسأل: من خلق هذا كله؟ ومن وهبه الحياة بلا اختيار منها؟ ومن يهبها الموت ولا تملك له ردا؟ بل، من ذا الذي خلق الحيوانات والنباتات، وكذا العقول التي صنعت هذا الصرح العلمي الحضاريَّ؟

فهل يقدر بشر أن يخلق أصغر مخلوق تحت القبة البيولوجية العجيبة، أو تحت القبة الكونية العظيمة؟ أم أنه عاجز، سواء اعترف أم لم يعترف؟

السبب في الإلحاد كله هو التوجُّه الداروينيِّ الواضح في فلسفة المشروع، فداخل القبَّة جناح لداروين، وتعظيم لداروين، وتبجيل، بل وتأليه... فهو في نظرهم الإله، ولا إله... وكم من شبابنا تشرَّب هذا الفكر وهو لا يدري، ودافَع عن هذا الدين وهو لا يدري أنه لا يدري...

وأخيرا، لا آخرا... للقبَّة موقع افتراضي مفصَّل، يحملك خطوة خطوة إلى أجنحتها الخمسة، فقط بالبحث عن (Montreal Biodome) في المحركات البحثية، أو بالسباحة في العنوان الإلكتروني:

www.biodome.qc.ca

ثم باختيارك للغة إمَّا الفرنسية أو الانجليزية، ذلك أنَّ للغة هنا دلالة حضارية تدافُعية، لا كما أرادها البعض منا بتنكُّرهم للغتهم العربية العظيمة، وتغنِّيهم بالغنة الفرنسية الرطينة...

شتان بين ذلكم الاعتزاز وهذا الاهتزاز...

فقط أخي، إذا دخلت الموقع ادعُ الله لي وللمسلمين، ولا تنس أن تردد بثقة وإيمان: «ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار».

تجليات كَندية 06

ليلة القدر في مونتريال

الجالية الإسلامية في هذا البلد تتميَّز بكثير من الخصائص لا تتوفَّر في غيرها، وتتمتَّع بالكثير من الفرص والامتيازات التي حُرم منها غيرُها، فهي محظوظة حقًّا وصدقا، واجبُ الشكر والاجتهاد واقعٌ على عاتقها شرعا وعدلا.

ولا أدلَّ على هذا الحكم من المناسبات الدينيَّة، ومن المظاهر الحيوية اليوميَّة، ومن تصريحات هؤلاء واعترافاتهم المتفائلة الحامدة الشاكرة.

ففي الأيام الأولى من رمضان - مثلا - أقامت فيديرالية مسلمي كندا إفطارا جماعيا، كرَّمت فيه ثلَّة من الشخصيات السياسية والإطارات العلمية في كندا، وكان من بين المكرَّمين نواب عن الكيبيك غير مسلمين، لكنهم شاركوا ويشاركون - عادة - المسلمين في فرحهم، كما كان على رأس المكرَّمين عالمان جزائريان في الأصل، كنديان في الواقع والنشاط والعطاء، لطالما أثْرَيا الساحة المعرفية والعلمية في كندا، وتركا الأثر الحسن الطيب في الأوساط الثقافية هنا، وهما: أ. د. إبراهيم ابن يوسف، المختص في علم الاجتماع والعمران، وكذا ا. د. عمر أكتوف، الخبير في الاقتصاد، والعضو في الهيئة العليا للاقتصاد في كندا (HEC).

❖ ولقد كانت ليلة القدر بديعة، أنسَتنا آلام الغُربة، ومَحت من الأنفس آثار الحياة اليوميَّة المادية، فقصدها المسلمون شبابا وشيابا، ذكورا وإناثا... وامتلأت المساجد بالمصلِّين، المهللين، الفرحين، المستبشرين...

كأنه عيد قبل العيد.

ومن عجب أنَّ الدولة هنا، وأنَّ الناس هنا... لا يحاربون هذه المظاهر الدينية، بل يشجِّعونها، فيحفظون كرامة كلِّ إنسان، ويدافعون بشراسة عن اختياراته، ممَّا جعل هذا البلد قارَّة تموج بالتنوع الديني والعرقي واللغوي

والثقافي... مما أكسبه ثراء ونشاطا وتنافسا...

ولقد ذكر لي بعض الأصدقاء، أنَّ ناسا غير مسلمين من مَخْبَرهم، أو مصنعهم، أو جامعتهم... صاموا يوما أو يومين، تضامنا مع المسلمين، وهم مُعجبون بالصيام، حتى إنَّ البعض منهم لم يصُم عن الطعام والشراب، لكنه تضامنًا صامَ عن التدخين من قبل الفجر إلى بُعيد المغرب... وكان فخورا بذلك معتزًا...

❖ في مسجد الاعتصام بمنطقة «لافال» (lavale)، أحييتُ الليلة العظيمة القدر، وفيها شهدنا دعاء ختم القرآن، في خشوع وخضوع، بكى فيه الإمام الشيخ العالم الشاب «خالد البقَّار» مرَّات، وأبكى، ذاكرين نِعَم الله وأفضاله علينا، آملين راجين في رحمته، سائلين مثوبته ومغفرته، خائفين وَجِلين من عقابه وسخطه، داعين بجنَّات الفردوس للوالدين، والأرحام، والأهل، والذرية... ثم دعونا الله تعالى أن يفرِّج عن فلسطين، والعراق، وسائر بلاد المسلمين، مختصِّين أرض النبوات بالدعاء الملحاح، علَّ الله تعالى يكتب نصرة لبيت المقدس عاجلة، وينصر المجاهدين فيها، ويظهرهم على أعدائهم في كل مسلك وسبيل.

ثم بين برنامج وآخر تشنَّف أسماعنا بمدائح دينية، بالإيقاع والنغمة الشامية، على شاكلة سهرات «المسجد الأمويِّ»، أو «ليالي نور الدين خورشيد»، وقد كان المنشدون بارعين... فسبحان من وهبهم جمال الصوت، وروعة الأداء، وهداهم للالتزام بتسخير ذلك في الطاعات لا في المنكرات...

تواصلَ النشاط إلى صلاة الفجر، بدايةً بصلاة العشاء، ثم القيام، ثم صلاة التسبيح، ثم صلاة التهجد... فكانت - والله - ليلةً ملائكية، سألنا الله تعالى أن يجعلها ليلة القدر تحقيقا، ويتقبَّل فيها دعواتنا، ويعتق رقابنا من النيران...

وفي هذه المناسبة السعيدة يُثير التنظيم المحكم انتباهنا، ويبعث على الإعجاب: فهؤلاء شباب يجتهدون في خدمة المصلين ببشاشة وأريحية واجتهاد، وأولئك يوزِّعون قاروات المياه العذبة الصغيرة بفرح وسرور، وآخرون يحضِّرون السحور ويطعمون الطعام... وهكذا تزول الفوارق بين عباد الله في بيت الله، وصدق من قائل: «وأنَّ المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا»

ثم إنَّ ترغيب المرتادين لبيوت الله بالتبرع لا تُخطئه العين في كلِّ مسجد تدخُله، فكلها إمَّا طور التوسيع، أو طور التحسين، أو طور شراء قطعة أرض، أو محلٍّ جديد... لإقامة شعائر الله في أرض الله... والناس يسخون بما آتاهم الله، وينجزون المعجزات...

ولو سألنا العادِّين هنا عن عدد الجزائريين الأصليين، ممن تجنس أو لم يتجنس بعد، فإنَّ الجواب يعطينا ما بين خمسين وستين ألف جزائري، وعن المسلمين فيمنحنا ما يقارب ثلاثمائة ألف مسلم، عِلما أنَّ أغلب المهاجرين ذوو كفاءة عالية، ومناصب متميزة: دكاترة، ومهندسون، وفنيون، وخبراء... أي أنهم عقول مفكِّرة، وخزَّان عظيم لوطنهم لو وعى فاستفاد منهم، لكنها الخسارة العظمى إذا لم يكترث فأضاعهم...

حقا، إنها ليلة عظيمة القدر والشأن، إنها ليلة القدر، في مونتريال... أعادها الله على الأمَّة بالخير والبرِّ والمثوبة، وبالتمكين والاستخلاف والهداية. آمين

تجليات كَندية 07

دورة المقاربة بالكفاءات

بفضل صديق لي جزائريٍّ، يدرِّس الرياضيات في الثانوية، استُدعيتُ لحضور دورة تأهيلية تقييمية في الإصلاح التربويِّ بكندا، وكان موضوع الدورة: المقاربة بالكفاءات، تطبيقا على الصفِّ الخامس الثانوي، قسم الرياضيات، عِلما أنَّ الإصلاح التربوي في كندا كان في تصاعد وبلغ هذه السنة هذا المستوى.

كانت الخبيرة «سوزان» سخية ـ خلافا للنموذج التعاقديِّ الذي يميِّز الفكر الغربيَّ بعامَّة ـ، فلم تعقِّد أمرَ حضوري، بل رحَّبت به دون أيِّ تحفُّظ، ولا أيِّ طلب لوثيقة أو دليل... بل إنها ـ وهي الممثِّلة للوزارة، وصاحبة خبرة طويلة في هذا المجال ـ سُرَّت وشجَّعت، وما إن دخلتُ قاعة التكوين، في ابتدائية بمنطقة «الجزر الألف»، حتى نادتني باسمي وألحقتني بالمتدرِّبين... وقد رأيتُ فيها العجوز الطيبة، التي وددتُ لو أنَّ الله تعالى يسَّر لها فهم الإسلام، إذن لاعتنقته، ولكنني استدركتُ وعلمتُ أنَّ هذا هو دورُنا بالضبط: أن نشرح للناس ديننا بحكمة وقدوة، ونقدِّمه إليهم بصبر وبصيرة، ونعرضه عليهم بعلم وروية...

ثمَّ إنها هنَّأتنا بعيد الفطر، وأبدت سرورها بإتمامنا فريضة الصيام، خلافَ ما نعرف ونرى في بعض البلاد الأوروبية من حساسية وخوف من الإسلام (islamophobia)، كان نتيجة للاستدمار (أو الاستحمار، بلغة شريعتي) الظالم لقرون، ثم نتيجةً للإمبريالية العالمية (باصطلاح المسيري) بكلِّ آلاتها السياسية والإعلامية والفكرية في هذه السنين العجاف... هذا الذي سبَّب في هدر حقوق المسلمين، وأعنتَهم عنتا شديدا، وهم بين بين: بين بلاد لهم أهانتهم، وبلاد هاجروا إليها فأذلَّتهم...

وخلال الدورة فهمتُ لماذا اختارت وزارة التربية عندنا هذه المقاربة بالكفاءات، وكانت ـ في رأيي ـ محقَّة وموفَّقة في اختيارها؛ لكنني أدركتُ

. كذلك . موطن الخلل في إنزال المقاربة إلى أرض الواقع، وعرفتُ الفروق الجوهريَّة التي بيننا وبينهم، أي التي بين المؤسِّسين والمقلِّدين، ومن بين هذه الفروق نذكر:

❖ أنهم هنا لا يقدِّسون المقاربة، بل يرون فيها خبرة وكفى، ولذا تجدهم يقدِّمون النقد اللاذع، وبالخصوص فيما يعرَف بتقييم الكفاءات الثلاثة؛ أمَّا البعض منَّا فيرى أنَّ المقاربة بالكفاءات تنزيل من حكيم عليم، لا تناقش ولا تهذَّب، ويحاول هؤلاء - بالتبع - الدفاع عنها بأسلوب شرس وعصبيٍّ.

❖ ثم إنهم هنا - وهذا أهم ملحظ في نظري - وفَّروا لها الأسباب الكافية: من وثائق، ومراجع، ودورات تدريبية، وفرق للبحث والتطوير، وأخرى للنقد والتصحيح... وأعَدُّوا التسهيلات للأساتذة حتى يلتحقوا بتلك الفرق؛ لأنَّ الأستاذ عندهم عنصرٌ أساس في الإصلاح التربويِّ... ثم أسَّسوا مواقع للأنترنات، تشرح كلَّ صغيرة وكبيرة، وتعرض السند اللازم للمعلمين والمديرين مجانا.

❖ وهم مع ذلك قد سخَّروا جوًّا من التنافس بين مؤسَّستين للنشر المدرسي: (vision)، و(point de vue)، فكلٌ منهما تنتج أبدع المقرَّرات وأروعها، وتتكفَّل بالشكل والمحتوى سويا، ثم تُهدي للأساتذة نسخا، وتقيم لهم دورات تدريبية... وتموِّل هذه الدُور جزءا من البحث والتطوير لصالح المقاربة؛ أمَّا عندنا فقد فُسح المجال لدور نشر تجارية، لا تدرك معنى البحث العلميِّ، قصاراها أنها تطبع وتبيع، بل إنَّ التقارير لتشكِّك حتى في الصفقات، وتتهم جهات بالابتزاز لصالحها الخاص، وما شهدنا إلاَّ بما أعلِمنا... وأخيرا، وقعت الواقعة، فولدوا لنا الرداءة على شكل كتب ومقرَّرات، بداية من الأخطاء المطبعية، ونهاية بالورق والجمال والمسحة الفنية...

❖ وفرق آخر بيننا وبينهم، هو أنَّ المقاربة في كندا رُبطت بكلِّ المجالات الحيوية في الحياة اليومية للمواطنين، فالتلميذ يتعلَّم كل المواد غير منفصمة عن واقعه ومحيطه، ولا مناقضة لتوجه الوطن ومبادئه، الكلُّ يخدم الكلَّ، واللبنة الأساسية هي التربية والتعليم، منها يبدأ التغيير الحضاريُّ، وينطلق السبق المدنيُّ... وكانت الجائزة أنهم تفوقوا على العالم في كل شيء، وإن كنا نأسف أنهم أداروا ظهورهم للدين والروح، فأخفقوا في هذه أيما إخفاق؛ ووالله لو أنَّ الله هداهم وخدموا دينه كما يخدمون المجالات الأخرى، لكانوا طليعة البشرية وحُماتها، لكنَّك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من

يشاء... ولا نملك إلا أن نسأل الله أن يهدينا ويهديهم.

ولا أرى حاجة إلى شرح الانفصام الهائل بين برنامجنا التربوي ومؤسساتنا السياسية والصناعية والثقافية، فالمدرسة عالم، والسوق عالم آخر، والبرلمان عالم ثالث... ورابع... ولا أزيد.

❖خرجتُ من الدورة محمَّلا بالعشرات من الوثائق المرجعية والكتب والمقرَّرات، وأرسلتها توا مع صديق لي إلى بلدي، لعلَّها تنفع المتخصِّصين في التحسين، وتهديهم إلى مقارنات علمية أكثر دقَّة من التي أجريتها في هذا المقال المقتضب، حينها فقط سنعرف حقا ما هي الفروق بين مقاربتم للكفاءات ومقاربتنا، ونعي عَيانا الفروق الفكرية التي بيننا وبينهم...

ولنا أمل أن نجد من جهتنا ما يرضي، ذلك أنَّ جيلا كاملا بل أجيالا برمَّتها تقع رهن الإصلاح التربوي: إن نجح نجحوا، وإن فشل فشلوا...

فلنخلص النية لله، ولنحسن العمل في سبيل الله...

تجليات كَندية 08

شلالات نياغارا، بديع خلق الله

إنه ليوم سعيد يوم لتقيت بصديقي العزيز، الأستاذ الباحث الموفَّق عمر باكلي... فلقد قضيت الليلة في الطريق بين مونتريال وتورنتو، ووصلت وقتَ الفجر، ولكَم كانت المفاجأة حميدة حين وصولي، إذ رأيت المصلِّين يَخرجون من مسجد بجوار محطَّة الحافلات، في قلب المدينة، شارع «dundas»، وهرولتُ إليه، فصلَّيتُ الصبح شاكرا لله هداية المسلمين في هذا البلد إلى هذه الإنجازات الرائعة، وهداية سياسيي كندا إلى التسامح والعدل.

ثم كان اللقاء، وقهوة الصباح فيما يعرف هنا بـ «tim hortons»، وهي ماركةٌ صارت مرادفة للقهوة، من كثرة ما عشقها الناس، وداوموا عليها صباح مساء.

سطَّرنا البرنامج، فكان ثريا ممتعا، جمع بين شلالات من الأفكار والرؤى والبرامج التي يفكِّر فيها الأستاذ والتي أفكِّر فيها... فجمعْنا الفكر إلى الفكر، وألحقنا الرأي بالرأي... وما أحوجنا إلى ذلك في حياتنا اليومية بديلا عن الاستبداد والاستئثار بالرأي الواحد الفرعوني على شاكلة: «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد».

بدأ البرنامج بزيارة لمركب ISNA (Islamic senter of north America) بجامعه الكبير، ومدرسته الثانوية المتميزة، ثم زرنا مدرسة ابتدائية تابعة لمجموعة MAC (Muslim Association of Canada)، وشاهدنا كيف استطاع هؤلاء وغيرهم من مسلمي هذا البلد أن يجمعوا بين الأصالة والمعاصرة، بين الروح الإيمانية والنزعة العلمية.

ثم بعد الصلاة جماعة في المسجد، وغَداء طيب زكيٍّ في منزل الصديق، بحيٍّ جميل بديع يبعث على الأمل، ويدفع إلى العمل... بعد ذلك كلِّه، يممنا شطر الجنوب، أقصى الجنوب، أي إلى الحدود الكندية

الأمريكية، حيث ترسو شلالات نياغارا (Niagara Falls) العجيبة.

لكم كانت اللحظة مؤثِّرة خاشعة تلك التي شاهدتْ فيها العينُ جبالاً من المياه تسَّاقط إلى سفح الوادي، محدِثة صوتا لم أسمع له مثيلا في حياتي، ولعلَّه جمع في ثناياه كلَّ أصوات الخرير التي شنَّفت أذنيَّ منذ ولدت إلى يوم الناس هذا، فسبحان من جمع العالَم في واحدٍ...

لحظاتٌ من التأمل والنظر في عجيب خلق الله، اللسان يكاد يسبق الجنان في اللهج بذكر الملك الديَّان، والآيات والأدعية تسَّابق كأنها شلالات في العقل والقلب تهوى النزول إلى عظْمَة اللسان، ثم منها إلى الجو البديع، لتشارك في المهرجان الإيماني الهادئ الفريد...:

«ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك فقنا عذاب النار»

«هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه»

«وأنهارا وسبلا... وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا»...

أمَّا الدعاء للواحد الأحد فكان فنيًّا: «ربنا هب لنا بكلِّ قطرة ماءٍ في هذا المنظرِ العجيب، مِن يوم بدأ يسيل ويهدر إلى يوم القيامة... هب لنا، يا ربنا، بكلِّ منها رِفعة عندك، ومغفرة من لدنك، وهداية لأمَّة المصطفى، وحضارة وتمكينا لخير أمة أخرجت للناس.... آمين، آمين».

ومن عجب أنَّ قوس قزح بدا كاملا دائريا، ثم إنَّ الطيور لتتبختر من أعلى الشلال إلى أسفله، قائلة للإنسان لو وعى: «مهما بلغتَ من التطور، فستبقى عاجزا أن تكون مثلي في الصف والقبض، متى شئتُ وفي كل زمن وحين، وتبقى أعجز على التسبيح لربي في أدب ويقين؟»

من الجهة الشمالية كنا في أرض كندا، نشاهد أمامنا جَنوبا سواحا من أمريكا، والفاصل بينهما جسرٍ صغير، بلا حدود واضحة، يدخل ويخرج الناس منها ببطاقة الهوية، إلاَّ أن يكونوا من بلاد أخرى، أي من البلاد التي فرض عليها النظام العالمي الجائر، بالتواطئ مع النظام الوطني الظالم، قيودا، وضرب لها حدودا، مثل سد ذي القرنين: «فما اسطاعوا أن يظهروه، وما استطاعوا له نقبا»...

فهل نحن من صنف هاجوج وماجوج؟

أم أنَّ حكَّامنا يصنفوننا كذلك؟

أم أنَّ القدر أرادنا منهم، ما دمنا نبني حدودا وسدودا بيننا وبين ديننا وحضارتنا، فعوقبنا بالمثل؟

لا أعرف، لكن أسأل الله الفرج...

ثم صلينا المغرب في مسجد جميل، بجواره مدرسة فنِّية، في القرب من الشلالات ببضع كيلومترات... شكرا لمن فكَّر، ولمن أنفق، ولمن نظَّم، ولمن صلَّى، ولمن دعا...

ودخلنا البيت بعد عياءٍ جسدي، وراحة روحية، فجلسنا للعَشاء، ثم لكأس شاي مع أبناء صديقي، وهم بحمد الله شعلة من التفاؤل، وبريق من الأملِ والتخطيط... فأحيوا في قلبي ألف ذكرى إلى الجلسات العائلية الليلية الهادئة، ودعوت الله لهؤلاء وأولئك أن يحفظهم من كلِّ بلاءٍ وكرب، ويفتح أمامهم كلَّ فرصة وباب... فأمِّنوا... والسلام

تجليات كَندية 09

عيد بأية حال عدت ياعيدُ [1]

بمطلع هذه القصيدة الأدبية الرائعة للمتنبي أفتتح مقالي هذا، فأنا هنا غريبٌ مثلما كان هنالك غريبا، مشتاقٌ لوالديَّ وأهلي، وولدي وبنتي، وإخواني وأخواتي، وأرحامي وأقاربي... مشتاق إلى الأصدقاء والخلاّن، مشتاق إلى الحميز وأغلان... ولذا جاز لي شرعا وعقلا أن أردِّد مع المتنبي:

عيد بأيــة حال عــدت يا عيدُ ❖ بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

أمّا الأحبّة فالبـــيداء دونـهمُ ❖ فليت دونك بيـداً دونـها بيدُ

لولا العلى لم تجُب بي ما أجوب بها ❖ وجُناء حرفٍ ولا جرداء قيدودُ

ومع ذلك فقد ألفيت من الإخوة هنا كلَّ معاني الدفء والكرم، وجميعَ أشكال الرعاية المبالغ فيها والمنن... إمعانا في الإحسان، ومواساةً للولهان... فكادوا يُنسونني الجوى والحنين، وما نسيتُ؛ ذلك أنهم بفعلهم هذا يزيدون الفكرَ فكرا، ويُدنون من القلب مَن أبعده المكان والزمان، ونأى به الحال نأيَ أبدان لا نأي جَنان.

فأنشدت مرغما مع بعضهم:

سهــادُ البين أرَّقــني طويلا ويسلبني الكَرى حتى المقيلا

وجمرُ البعد ألهبَ لي كياني وأشعلَ بين أحشائي فتــيلا

وحاربني بسيف الهَجر شوقي فأردانــي بساحــته قَتــيلا

وصار الوجهُ مُصفراً حــزينا وجسمي - يا أحيبابي-نحيلا

1 للاطلاع على خطبة العيد، التي ألقيتها بالمناسبة..انظر الملحق رقم 02، آخر الكتاب.

❖ وفي يوم العيد وجدت سلواي في صلاة جامعةٍ، أقمناها داخل قاعة للرياضة والألعاب «Récréathèque»، حوَت بين جنباتها آلاف المصلين، رجالا ونساء، صبايا وصبيانا... تشرق من وجوههم نظرة النعيم، يحمدون على نعمة الإسلام الجليلَ الحليم... جاؤوا من جميع بلاد العالم، من كلِّ الأجناس والألوان والألسن، ومن جميع الاتجاهات والانتماءات والجماعات... وقفوا على صعيد واحد، فرِحين فرحة العيد مكبِّرين، أضناهم الشوق للفرحة الكبرى يوم لقاء ربِّ العالمين...

حقًّا، لم أشهد عيدا يشبه هذا العيد، إلاَّ عيد مكَّة المكرَّمة (أمِّ القرى) الذي لا يدانيه عيد، أمَّا الكثير من أعياد المسلمين في أنحاء العالم، فيغلب عليها طابع الانتماء، وقلَّ منها ما يجمع أصحاب «لا إله إلا الله» على صعيد واحد، دون إقصاء... ويزيد الطين بلَّة اختلافهم في الهلال والرؤية والحساب، وتكريسهم لمعاني الفرقة والشحناء والارتياب، حتى أماتوا جذوة العيد في القلوب، وقتلوا الفرحة الكبرى شر قِتلة.

ما أروعها من تكبيرات وتهليلات، ثم ما أحكمها من خُطبة، تفضَّل بها علينا الكريم بن الكريم، الشيخ الشاب العالم «خالد البقار»، فيها ركَّز - كعادته - على الإحسان، والتسامح، والتعاون، والتغافر، ولين العريكة، والصبر... مع المسلمين وغير المسلمين، كما أمرهم ربُّ العالمين: «وقولوا للناس حسنا»، «فبما رحمة من الله لنت لهم»...

ثم قمنا للمغافرة، وسلَّم بعضُنا على بعض، وتعانقنا وتسامحنا، وتراحمنا وتهادينا... لا يربط بيننا رابط، إلاَّ رابط الدين والإسلام، لم ير بعضنا بعضا من قبل، ولعلَّنا لا نلتقي إلى يوم الحشر، يوم العرض الأكبر... يومًا نذكر فيه بإذن الله عيدَ مونتريال، ونحمد الواهب على أن خلقنا وهدانا، وبرحمته تحت ظل عرشه آوانا...

وفي شوارع المدينة من «لافال» إلى «مون رويال»، ومن «ميرَبال» إلى «لونغوي»... تلتقي بالآلاف من المسلمين، بلباسهم الجديد، لباس يوم العيد...

معهم أهلهم وأبناؤهم، فرحين مسرورين، لا يخافون أحدا ولا يخشون...

بل إنَّ منهم من صلَّى في ساحات عمومية كبيرة، بعشرات الآلاف من المكبِّرين والمهللين... وحالهم يشكرُ تسامح البلدية والحكومة، وتوفيرها الدعم اللازم والسند الكافي... احتراما للخصوصية، وتقبلا للاختلاف والتعددية... وصدق العظيم القائل: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك» وإنَّ هؤلاء منهم، ولا شك؛ وقال سبحانه وصدق: «ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك»، والذين يلوننا ـ في الجغرافية والتاريخ ـ من هذه الطغمة، ولا ريب.

عيدكم سعيد، وكل عام وأنتم بخير...

تجليات كنَدية 10

في كندا، الأصل براءة الذمة

«الأصل براءة الذمة»، قاعدة أصولية جامعة، سبق الإسلام إليها، وأجاد المسلمون الأوائل في تطبيقها والعمل بها... أمَّا اليوم فقد خلف خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فأضاعوا مثل هذه المعاني الحضارية التي تصنع التمكين والتسخير والحضارة...

في هذا البلد لا يزال الأصلُ براءة الذمة، فكلُّ إنسان مؤتمن ما لم تثبت خيانته، ومِن مظاهر ذلك أنك لو رغبت في إنشاء شركة من أيِّ نوع كان، ومن أيِّ حجم كان، وبأيِّ صفة كانت... فإنك تستطيع فعل ذلك في دقائق، فقط يكفي أن تدخل إلى موقع مخصَّص لذلك، وتسجِّل معلوماتك، وتُدخل بطاقة حسابك البنكي، وتختار عنوانا واسما تجاريا، ثم تدفع الحقوق، ومن ساعتها تستطيع أن تبدأ: سواء في الاستيراد أو التصدير، أم في التعليم أو التصنيع...وبهذا تطوَّرت الحياة الاقتصادية ونمت، وازدهرت البلاد وسمت...

ومن مظاهر التسهيل أنك مؤتمَن في أيِّ رقم ومبلغ من الربح تعلنه عن شركتك، وعلى تصريحك يبنون المستحقَّات الضريبية، بلا شك ولا تكذيب، إلاَ أن يثبت أنك تغش وتراوغ... بل إنك لو صادف أن خسرت أو لم تحقِّق ربحا، فإنَّ الضرائب تصدِّقك، على أن تؤول إلى الدفع متى خرجت من الأزمة...

والضرائب هنا عالية جدًّا، تمثِّل نسبة مأوية مرتفعة من دخل الفرد، لكنها تظهر جلية في كلِّ شيء: في الطرقات، والخدمات، والتعليم، والصحة، وفي الدعم الاجتماعي، والإعالات العائلية... ولذا تجد الناس - ظاهرا - يدفعونها بلا تردُّد ولا إحجام، ويفتخرون بذلك... إلا ما شذ، والشاذ يثبت القاعدة...

الضرائب هنا في كندا ليست متساوية، فكلَّما ارتفع المدخول ارتفعت النسبة، وكلما قلَّ قلت... خلاف بعض الدول التي تسوي بين الفقير والغني في الأخذ، ولا تسوي بينهما في العطاء... فيُظلم الأفقر،

ويُحمى الأغنى... وتنتشر الفتن، وتعم المحن...

كما أنّ نظام المرور يدار بصرامة وهدوء، فكلُّ مخالفة مهما صغرت تستلزم غرامة أو عقابا، لكنك لا تكاد تشاهد شرطيا أو رقيبا، فكل شيء يراقب بالكاميرات الخفية، ومتى ما قُبض عليك وقد خالفت، فلا تسامح ولا رشوة ولا اعتذار مهما كان... فمن فعل دفع... حتى إنَّ من جاوز سرعة 140 كلم / سا يغرَّم بمبلغ 10000 دولار، ومن ضغط على زر الطوارئ في قطار - مثلا - يغرم بمبلغ 500 دولار، إضافة إلى دفع كل الخسائر اللاحقة من فعله الأرعن هذا... وقد يسجن لهذا الفعل المشين...

ولا يطلب السير بالسيارة 50 أو 60 كلم/سا... لكن، بين الخمسين والستين، فإن سرت أقل غرِّمت وإن أسرعت أكثرَ غرِّمت... وبهذا يضمنون السير المتوازن، ويمنعون الكثير من التعطيل ومن الحوادث...

«الأصل براءة الذمة» في خروجك من أي مجمع تجاري، أو مكتبة عمومية... وأي إجراء للتفتيش يستلزم الحذر واليقين، وإلاّ قد يعرِّض المفتِّش نفسه لعقاب، وبهذا قد تضيع بعض الأشياء وبعض الأموال لكن لا تضيع الثقة وكرامة الإنسان، وهي أغلى ما يملك الإنسان: «ولقد كرمنا بني آدم»...

ولقاعدة «الأصل براءة الذمة» تطبيقات لا نهاية لها في هذا النظام الكندي، لا يَسمح المقام ولا الفكر بتتبعها، وأنا أدوِّن هذه الكلمات جالسا على مقعد لحافلة تحملني من «تورنتو» إلى «مونتريال»... أريح العين بمناظر جميلة: من ماء وخضرة، ومن زرقة سماء، وصفرة بدأت تدب إلى أوراق الأشجار، بل وحمرة... وقريبا ستتحلى الطبيعة بصفرة وحمرة كاملة، ثم تسَّاقط الأوراق، وهو - كما قيل لي - منظر فني لا تمله الأبصار... وهو ما يعرف عندهم هنا بالصيف الهندي (summer Indian)...

الصباح دافئ عموما، والليل يقارب الصفر، وهو بارد نسبيا... وبعدها يدخل الشتاء الزمهرير القارص...

معًا نردِّد دُعاء السفر: «سبحان الذي سخر لنا
هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربِّنا لمنقلبون...»

تجليات كَندية 11

حديقة النباتات، حيث العقل يصنع المعجزات

سألني صديقي ونحن نخطو الخطوات الأولى داخل حرم خلق الله، ووسط عظيم صُنعه: حديقة النبات (botanic garden)، وقد فهم هؤلاء أسراره، وطوَّعوه، وحفظوه، فأسَّسوا منه مدرسة للحياة، سألني: ما الفرق الذي بيننا وبينهم؟

لم أشأ أن أعرض نظريات فلسفية، ولا آراء حضارية، حول مشكلات الحضارة، ونظريات التخلف، فقلت بلا تردد: العقل... العقل... العقل.

إذا تحرَّك العقل تحرَّك كلُّ شيء، وإذا حُنِّط العقل مات كلُّ شيء...

ولقد امتنَّ الله تعالى علينا بالعقل، وفضَّلنا على سائر خلقه بالعقل، وجعل العقل مناط التكليف، فأمرَ بإعماله واستعماله حتى لا يتبلَّد، ونهى عن إذايته بالخمر، أو السحر، أو الخرافات، أو الدكتاتوريات... أو كل ما من شأنه أن ينزل من قدره.

فقلت بعد ذلك:

وما علاقة هذا بما أنا عليه؟

ما علاقة العقل بالسفر والسير في الأرض؟

فتذكرت للتوِّ أنَّ الله سبحانه أمرنا أربع مرات في كتابه الحكيم بالسير في الأرض، فقال جل من قائل: «قل سيروا في الأرض»، لو أدركنا؛ وأمرَنا بالسير بمعان مختلفة عشرات المرَّات، لو وعينا؛ ثم أمرنا بأن نسير بعقولنا في ثنايا الكون آلاف المرَّات، لو عقلنا.

ولم أنس قول الشاعر المبدع، شاعر الثورة مفدي:

ولولا التنقل يذكي شعوري
ويرهف حسي ويبلو رشادي
لغاض معيني وأجبل فكري
وعشت بليدا كبعض العباد

وصرت أردد كالببغاء

مذاهب لم تك صنع بلادي

دفَعنا تكلفة الدخول إلى حديقة النباتات، وهي قابعة وسط المدينة، ولكنها غابة مثل غابات الأمازون جمالا وبهاء... تحوي 22 ألف نوع من أنواع النباتات في الهواء الطلق، وعشر قاعات مكيَّفة حسب الطبيعة الأصلية للنباتات المجلوبة من المناطق الأربعة في العالم...

أوَّل ما أثار الانتباه والفضولَ حقلُ الحشرات (Insectarium)، وإنَّك لتشاهد المئات من أنواع الحشرات داخل قارورات زجاجية، بها سائل يحفظها سليمة لا تتآكل، ومئات أخرى حية تُرزق، هُيئ لها الجو الطبيعي الذي تعيش فيه، سواء أكانت من الغابات الاستوائية أم من القطب الجنوبي، من منطقة حارة أم من منطقة باردة... لا يهم.

ثم ركبنا قطارا يقطع الحديقة في عشرين دقيقة، ويمكِّنك من استعجال السير لمن تعجل مثلنا، فتتمتع بآلاف الأشجار من كل نوع، وبالآلاف من أصناف الأعشاب والزهور.

وتلج قبَّة النباتات اليابانية، وتتروى من الفنِّ الياباني المستقى من الطبيعة جمالها، وتندهش من اللمسة الفنية للإنسان وهو يقلد بديع صنع الله، بل يستلهم منه المعاني، ولا يملك أن يهبه الحياة، أو يخرج بعقله عن دائرة الإبداع التي أودعها الله فيه...

وما أروع الجناح الذي يعلِّم الطفل كيف اخترع الناس الملايين من الآلات، وأسسوا الملايين من العمارات، بمحاكاة الطبيعة، وبتمثلها، وبفهم أسرارها، وبالاجتهاد في تقليدها... فمن الطائرة إلى المحراث، ومن آلة الحفر إلى جهاز الرصد، ومن ناطحات السحاب إلى الملاعب الرياضية...

كل ما اخترع الإنسان له بُعد من الكون ومن الطبيعة...

وتساءلتُ مرَّة أخرى: لكن، هل يوهب هذه القدرة على الاختراع من امتنع عن النظر في خلق الله، واكتفى بالحفر في الحروف والكلمات، وانتهى؟

طبعا، لا، هو الجواب المباشر البديهي، غير أنني أبحث عن سبب تحوُّلنا - نحن - من بشرٍ سخَّر الكون لهم، وسُخِّروا هم لخالق الكون، إلى حالة الإنسان الكَل، في قوله تعالى: «ضرب الله مثلا رجلين، أحدهما أبكم، لا يقدر على شيء، وهو كَلٌ على مولاه، أينما يوجهه لا يأتي بخير»

ضاعت الحضارة: بين من سخَّر الكون ونظر إليه بعلم، ولكنه لم يعترف لربِّ الطبيعة بالملك والخلق، فتألَّه وتجبَّر..ومَن جمَّد عقله، وضرب صفحا عن خلق الله، فتعرَّف على الله من خلال كتابه المسطور - كما يبدو - بعيدا عن كتابه المنظور، بل حتَّى الكتاب المتلوّ لم يلق العناية الكافية لديه...

داخل الصرح حديقةٌ ذات جمال، ريُحها ذكي طيب، أعدَّت خصِّيصا للمكفوفين، عُرضت فيها المئات من النباتات، بجوارها لوائح البَرَايْ، كتب عليها اسم النبات، فعلى الزائر أن يحفظ الاسم، ثم يلمس الشجرة (وهو مسموح بل مطلوب في هذه الحديقة فقط)، ثم يشم الرائحة، فيكتمل لديه مدلول تلك النبتة، ويعرفها معرفة جيدة من خلال: اللمس، والشم، والحرف...

قلت لصاحبي: والله لو استوعب ضريرٌ كلَّ هذه النباتات: أسماءها وخصائصها، فإنَّه سيكون أفضل منَّا اطلاعا، وأعلم منَّا بشؤون الطبيعة وأسرارها، رغم تفوقنا عليه بأعيننا، ورغما عن جهلنا وكسلنا... أمَّا لو جاء أحد بحبيبيته وبعقله، وقضى عاما داخل الحديقة، يطالع في مكتبتها التي تحوي 25 ألف عنوان في مختلف المجالات الحيوية، ثم يُلحق ما قرأ بما شاهد، فإنه سيخرج من هنا عالما للنباتات من الطراز الأول...

سبحان الله، قلَّ من يعرف أنَّ علم البستنة الذي ينعم الغرب اليوم في ظله، من اكتشاف المسلمين أمثال ابن العوام وابن البيطار، فإذا تنكر هؤلاء لحضارتنا، ما بالنا نحن ندير لها ظهر المجنِّ، جهلا وغفلة وسذاجة...

أليست الحضارة بناء وتراكم؟

أم أنها طفرة وتزاحم؟

وللأطفال، وللمدارس، وللجمعيات... مكانة خاصة، وتعامل خاص، وتكلفة خاصة... وبرامج ونشاطات خاصة... حتى إني لأتعجب من تلميذ تحيط به كلُ هذه الوسائل، ومع ذلك يُعرض عن العلم... وإن كان الكثيرون منهم ينبغون بلا جهد إضافي خاص، بل باتباع الأسباب التي أعدت لهم، والظروف التي هيئت لهم.

فهل لأطفالنا من مشاريع مثل هذه؟ [2]

2 انظر رسالة إلى مدارسنا في الجزائر، بمناسبة العام الدراسي الجديد، الملحق رقم 03. آخر الكتاب.

تجليات كنَدية 12

... وجاء يوم الوداع

كما بدأتُ الرحلة أُنهيها، وخاتمتها هذه المرة خطرات إيمانية في مطار مونتريال، إذ القلب خاشع وجِل، متعلّق بالملك الديّان، الذي لا يبلى وهو يُبلي الأزمان...

صلّيت المغرب والعشاء جمعا، فكان إحساسًا رقيقا، ونفحة ربانية غائرة في الأعماق، تلك التي انتابتني وأنا ألهج بالذكر، وأصدح بالتكبير، في مكان كلُ ما فيه ومَن فيه غافلٌ عن ذكر ربه، إلاّ مَن رحم ربِّي، وهم قلّة قليلون... أدعو الله أن يجعلني منهم.

كانت الأيام الماضية مفرطة في السرعة، وبخاصَّة يوم قرَّرتُ تعجيل الرحلة بأسبوع كامل، والسبب هو ملتقى القاهرة، الذي دقَّ على الأبواب، وهو ملتقى دوليٌّ مقارن بين التجارب الإصلاحية في العالم الإسلامي وتجربة الأستاذ محمد فتح الله كولن في تركيا.. ولقد جاءتني دعوة خاصَّة للحضور، لا للمحاضرة؛ غير أني فضَّلت كتابة كلمة، إن لم ألقِها فسأطبعها في مجلة حراء أو في غيرها إن شاء الله [3]، ففرَّغتُ يوما كاملا أو يزيد لمقال بعنوان: «... هل أتبعك على أن تعملني مما عُلّمت رشدا؛ تحويل المعرفة إلى سلوك في منهج محمد فتح الله كولن»، ولقد اعتنيت به أيما عناية، فأرسلتُ قاربي إلى بحار الإبستومولوجيا ونظرية المعرفة، معتمدا مصادر أساسية أولية، رابطا بين ما أكتب وبين «المنظومة المعرفية الرشيدة» التي أنا بصدد الحفر فيها.

ثم كانت لي رحلة - ما أبدعها من رحلة - إلى شلالات نياغارا مرَّة ثانية، لكن هذه المرَّة ليس لساعتين وإنما ليومين...

تكرَّم علي الإخوة في الجمعية المضيِّفة «الحلقة الإباضية الميزابية بكندا»، بهذه الهدية الثمينة، ولكم كانت عزيزة على النفس، شاكرا فضلهم وحسن وفادتهم...

---

3 شاركت بالمحاضرة في ملتقى الأردن، إذ لم يتسنَّى لي اللحاق بالقاهرة، بسبب التأشيرة المتأخِّرة عن موعدها؛ والمحاضرة نشرت بحمد الله ضمن كتاب «البراديم كولن»، بالتنسيق مع الأكاديميا في تركيا.

وانطلقنا [4] على بركة الله من مونتريال، فقضينا يوما جميلا وصولا إلى الشلالات التي تبعد بحوالي 600 كلم، توقَّفنا وسط المسافة في حديقة غنَّاء مخضرة مدهامَّة، وأعددنا كأس شاي منعنع، بين مروج وأشجار باهية زاهية...

وما إن وصلنا الشلالات حتى اكترينا ليلتين في نزل رائع قريب من إحدى عجائب الدنيا السبع... اسمه نزل «days inn»... وكان المطر وابلا، فأودعنا حقائبنا غرفة 303، ثم خرجنا للتو نتمتَّع بمناظر الشلالات القابض للأنفاس، زاده جمالا أنَّ الماء ينزل من السماء ويصَّعد من الأسفل بفعل سقوط الكميات الهائلة على مجرى النهر... فارتوينا ماء زلالا، ولو شاء الله لجعله غورا أو أجاجا، وإنهم هنا يقولون: «إذا زرت الشلالات ولم تتبلل كلية، فاعلم أنك لم تزرها».

في الصباح الباكر لم نكن مثل الكسالى، لكننا كنا بحمد الله بكوريين، فبعد صلاة الفجر جماعة، وقهوة رقراقة طيبة، حزمنا أمرنا وجهة شروق الشمس على مياه الشلالات، وإنا لنوحِّد الله، ونسأل ربنا، ولا مجيب على سؤالي سواه: «كم مرَّة أشرقت الشمس على هذه الشلالات، من يوم خلقها الله سبحانه، إلى يوم الناس هذا؟ ثم كم مرة ستشرق إلى أن تبدَّل الأرض غير الأرض والسموات، وتطلع الشمس من مغربها؟»

لا عالم إلاَّ الله وحده، ولكن يقينًا خُلقت هذه الشلالات منذ آلاف السنين، والمياه كانت أقوى بكثير مما هي عليه الآن، بل إنَّ ما نراه من الماء اليوم - حسب كتاب خاص بالشلالات - يمثل ثلث الكمية التي تلقيها البحيرات والأنهار والجبال، أمَّا الثلثان الآخران فقد حوِّلا في الطريق، سواء في أمريكا أم في كندا، إلى أغراض صناعية، وبخاصة لإنتاج الكهرباء منها.

عُدنا إلى النزل للفطور، ثم عقدنا العزم على امتطاء سفينة تحمل الزوار وجهة مصبِّ الشلالات، عبر النهر العظيم الذي يأتي منها، بعد أن تلبس عباءة من النيلون العازل، فتشدُّ أنفاسَك تلك الكميات الهائلة من المياه التي تخالها تسَّاقط عليك، مما لم تشهد العين مثيلا له أبدا... وإنَّ الواحد منَّا ليرتوي دون أن يبذل جهدا... فيكفيه أن يفتح فاه حتى يمتلأ ماء عذبا زلالا سائغا شرابه...

4 رفقة الأخوين الكريمين: إبراهيم دواق، ومصطفى لولو؛ عضوا إدارة الجمعية. وكان الأخ العزيز بن تزقفين غائبا.

والنهر والشلالات حدود بين أمريكا وكندا، حيث تلتقي البواخر من الجهتين وتزول معاني الحدود بين الدولتين، فهؤلاء وأولئك الزوار ضيوف على الأمريكيتين الجنوبية والشمالية، ومصلحة الدولتين فوق الاعتبارات والحسابات الضيقة...

ثم جاء العشي، وزرنا مسجدا جميلا، ومدرسة تقع على بعد كيلومترات من الشلالات، يدرس فيها حوالي سبعون تلميذا، دراسة نظامية، وقد قيل لنا: إنَّ 120 عائلة مسلمة تسكن في هذه الضواحي النائية، أغلبهم من باكستان...

عملٌ وتخطيط مع شاي بالنعناع، ثم نوم هنيٌّ، وصلاة الفجر جماعة، ثم العود من حيث أتينا... قفَلنا راجعين إلى مونتريال، وكلنا ألسنة تلهج بالحمد والشكر للواحد الديان، وللبديع السميع... وكان اسم الله الذي اتخذناه موطن تفكُّر في هذا اليوم، هو: الفتاح...

فيا فتاح، افتح لنا أبواب رحمتك... آمين[5].

5 للاطلاع على خطبة الوداع، انظر الملحق رقم 04، آخر الكتاب.

فاتح القسطنطينية

مقالات «فاتح القسطنطينية» هي ثمانية، نشرت في موقع فيبكوس تباعا، وذلك أثناء تفرغي في تركيا، شهري جويلية وأوت من عام 2010م.

مقالات فاتح القسطنطينية 01

من «سما»[1] حيث الفكر سما

حين يقصد المرء مستشفى فإنَّ الغرض دائما يكون هو الاستشفاء من أسقام الجسد وأمراضِها، والمنتظَر عادة هو أن يلتقي بأطبَّاء وممرِّضين في مقابل مرضى ومعلولين؛ هؤلاء يعانُون ويأملون في الشفاء، وأولئك يُبدعون في استعمال معلوماتهم لوصف الدواء...

لكنَّنا هذه المرَّة – على غير العادة – دخلنا مستشفى في زمرةٍ من الإخوة الأتراك المتفنِّنين في الإحسان، يترأس وفدَنا الشيخ عثمان ولد الشيخ أحمد، وهو عالم موريتاني، ووزير سابق في بلده، صاحب حظوة ومكانة اجتماعية...

دخلنا المستشفى وليس بيننا مَن يعاني أو يتألم من سُقم الأبدان، غير أنَّ جميعنا يقاسي الأمرَّين من وهن الأديان، ويعلن الويلين من الخلل في حضارة البلدان...

---

1 سَما: هو مستشفى sema، في استانبول، للتجول افتراضيا في المستشفى انتقل إلى الرابط الآتي: www.semahastanesi.com.tr

توجَّهنا إلى مكتب المدير، فاستقبَلَنا بوقار، وبشٍّ في وجوهنا بشُّ الأبرار، وهو رجل دمث الأخلاق، حسن الطالع، يلج القلوب دون أن يطرقها، يذكِّرنا بالسلف الصالح من علماء الإسلام أمثال الرازي وابن سينا...

فهل كان مدير أحسن مستشفى في تركيا، وأكثرها تطورا، طبيبًا، أو مِن سِلك الأطباء؟

وهل أغرقَنا في وصف محتويات المستشفى من خبرات بشرية، ووسائل تقنية؟

وهل شهَّر لمستشفاه، وردَّد مع المردِّدين: إنه أكبر... وأفضل... وأعظم؟

لا، لم يقع شيء من ذلك؛ لكنَّه استضافنا في قاعة مُطلَّة على بحر البوسفور، منها تُرى «جزر الأميرات»، وأجلَسَنا حسب مقامِنا، ثم أكرمنا بشاي أحمر - على عادة أهل الترك دوما -، وسلَّم لكلِّ واحد منَّا دفترا وقلمًا، وبدأ يحلِّق عاليا في سماء الفكر والفهم، بعد أن استأذن واعتذر...

إنه العالم مصطفى أوزجان، خرِّيج كلية «الإلهيات»، وأحد أبرز تلاميذ الأستاذ محمدَ فتح الله كولن، كان واعظا في أكبر مساجد تركيا، وهو الآن بالإضافة إلى إدارة المستشفى، مديرٌ وعضو في إدارة أربع جامعات، منها ما هو في الوطن، ومنها ما هو خارجها...

من هنا تبدأ المفارقات:

فهل يُعقل أن يتولَّى إدارة مستشفى خرِّيجُ كلية للعلوم الإسلامية في عالمنا العربي، مثلا؟ وهل يمكن للمرء أن يجمع بين إدارة مستشفى وإدارة جامعة، وهما ضرَّتان، في بلادٍ لا تطيق الواحدةُ منهما الأخرى؟

لا أنتظر الجواب.... ولكن أواصل في تحليل حديث الأستاذ مصطفى:

فقد شرح لنا أنَّ العالم ينقسم إلى منظومتين:

- منظومة نبوية مصدرها الوحي،
- ومنظومة فلسفية، معتمَدها العقل...

أمَّا الأولى فكليةٌ شمولية، وأمَّا الثانية فجزئية اختزالية... ولقد جُرِّبت المنظومتان عبر التاريخ، وكانت ثمار الأولى دائما طيبةً وخيِّرة، أمَّا الثانية

فكانت دوما تُردي بالبشرية إلى الويلات والنكبات...

وفي القرون المتأخِّرة، عَرف العالم فشل المنظومة البشرية الفلسفية، ووُلدت محاولات في كامل العالم الإسلامي للنهوض والإصلاح، بكلِّ المناهج والطرق والوسائل... ومع جميع هذه الجهود، لم يتمَّ لهذه المحاولات النجاح المنشود، ولا التمكين المقصود...

فأين الخلل؟

يواصل الأستاذ قائلا:

الخللُ يكمن في كون هذه المحاولات ركَّزت على الأوامر التشريعية، وأغفلت الأوامر التكوينية... ركَّزت على الشعائر وفقه العبادات، وأهملت أصول الإدارة والاقتصاد وفقه الحضارات... فما كان من غير المسلمين إلاَّ أن أخذوا قصب السبق في الأوامر التكوينية، وعمَروا الكون، وشيَّدوا المدنيات، فتفوَّقوا، وبزوا الأمم كلَّها... مِن هنا أوسِد الأمرُ لغير المسلمين، مع أنَّ المسلمين يمثِّلون ما يقارب ربع العالم.

كلُّ ذلك، وقول الله تعالى يُتلى علينا، ونحن نؤمن به، ونعتقد صدقه، وهو القائل سبحانه: «والعاقبة للمتّقين» (الأعراف، 128)، ويقول تعالى: «والعاقبة للتقوى» (طه، 132)،

ويقول جلَّ من قائل:

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنَّ الأرض يرثها عبادي الصالحون»

(الأنبياء، 105)...

❖أين الخلل، إذن؟

الخلل في عجز المسلم - الحديث للدكتور مصطفى - وليس في قوَّة الكافر، ولقد استعاذ الرسول الكريم، سيِّد الأنام عليه السلام «من العجز والكسل» في الحديث المأثور، وعلَّمنا في أحاديث أن نستعيذ بالله منهما في دعائنا... فلا بدَّ إذن أن يرتفع العجز عن المسلمين حتى يتحقَّق لهم النصر، ويتمَّ للبشرية السعادة والرفاه.

ومِن جهة أخرى، لا بدَّ أن ننظر إلى القرآن الكريم على أنه تجلٍّ لصفات الله تعالى: فهو من جهةٍ التجلِّي لصفة الكلام، ومن جهة أخرى هو التجلِّي لصفة القدرة والإرادة في الكون... وعلى المؤمن أن يتمثَّل هذه التجليات كلَّها في أقواله وأفعاله، في سلوكه وصفاته...

فهل عندما يقول الواحد منَّا - نحن المسلمين -: أنا مسلم، ولكنني سأنام، وأعتزل الحياة، ومع ذلك سأربح وسأفوز في العقبى... يكون صادقا؟ وهل يمكنه أن ينتصر على الكافر العامل المجدِّ المجتهد؟

يجيب الأستاذ بحزم وانفعال:

لا، وألف لا... ففي الدنيا، هذا الكافر هو المتمكِّن والمستخلَف، وذاك المسلم هو المهزوم والذليل... ولكنَّ أحكام الآخرة شيء آخر... ثم إنَّ المسلم بهذا لم يراع صفتَي القدرة والإرادة اللتين هما من أعظم تجليات صفات الله في القرآن الكريم، وهذا نوع من أنواع المعصية... طبعا.

مِن هنا، فإننا نقرِّر أنَّه في أصول التشريع، لا يمكننا أن نأخذ شيئا عن غير المسلمين، فقد اكتمل ديننا والحمد لله... أمَّا في المجالات الأخرى، وفي أصول التكوين والعمارة، فإنَّ العلوم وما توصَّلت إليه البشريةُ مُشاع، وعلينا أن نستفيد منها، كما استفاد الغرب منَّا يوم كنَّا سادة في الأرض.

والتحدِّي الأكبر الذي يعترضنا اليوم هو: كيف نفهم - في ضوء القرآن والسنة - أصولَ الحياة كلَّها؟ من مثل:

ما هو الإنسان؟ وما هي الحياة؟ وكيف نحقِّق أفضل شكل من أشكالهما؟ وكيف نُعطي نظرة جديدة للعلوم الوضعية؟ وكيف نستفيد من العلوم والتكنولوجيا لسعادة الإنسان ولخير الحياة؟

يقصُّ علينا الأستاذ مصطفى حادثةً، وقعت له في اليمن، تدلُّ على هذه المفارقة بين الأوامر التشريعية والأوامر التكوينية، ويقول:

كنا في إحدى البلاد العربية، فأخذَنا أحدُ العلماء إلى مدرسة قرآنية كبيرة، يزاول فيها حوالي 450 طالبا مختلَف علوم الشرع، بجدٍّ واجتهاد... وهم في هذا غير مقصِّرين... غير أننا لاحظنا وبكل وضوح أنَّ هؤلاء الطلبة لا يعيشون عصرهم، وإنما يعيشون في القرون الخوالي، ويحيون عصورا غابرة، بكل ما تحمل الكلمة من دلالة.

والأستاذ كولن في أواسط الستينيات لاحظ هذه المفارقة، فأعمل فكره وجنَّد روحَه لحلِّها، بكلِّ الوسائل والطرق... فكان - هو بنفسه - يدرِّس العلوم التقليدية والعلوم العصرية جنبا إلى جنب... ويستوعب التراث والفكر الفلسفي معًا... وكان هذا المنحى عنده جديدا على تركيا في ذلك العصر...

والسرُّ في نجاح الأستاذ كولن، هو أنَّه يؤمن أنَّ أيَّ فكر إذا لم يُقبَل لن يُكتب له النجاح، وأنَّ أيَّ فكر إذا لم تكن فيه إمكانية التطبيق لن يحقِّق شيئا.

وعلى إثر هذا المنهج أسَّس الأستاذ دُورا للطلبة، على شاكلة دار الأرقم، ووضع لها مخطَّطا تربويا بديعا، منطلقا من قوله تعالى:

«في بيوت أذن الله أن ترفع ويُذكر فيه اسمه، يسبِّح له فيها بالغدوِّ والآصال رجال..»

(النور، 36).

فلمَّا تبيَّن نجاحُ هذه الخطَّة، تسابق التجَّار والمحسنون في بناء العشرات من البيوت على شاكلتها... حتى عمَّ خيرُها تركيا كلَّها، بعد أمدٍ قصير...

وكان الأستاذ فتح الله يستغل فصل الصيف لإقامة مخيَّمات للعلوم الشرعية، وللتدريب على أصول الإيمان والتزكية، والمعرفة والمعاشرة، منطلقا من القرآن الكريم، وسنَّةِ المصطفى الأمين... فأقام أوَّل مخيم سنة 1967م، لمدة ثلاثة أشهر كاملة، وواصل فيها إلى غاية سنة 1975م ... وبعد هذه السنة غيَّر الأستاذ منهجه وطريقته، وكان متميِّزا بليونة منقطعة النظير...

وبعد سنة 1985 أسّس الأستاذ منهجًا للطلبة المتخرِّجين في كلية الإلهيات، بحيث ينقطع للدراسة المعمَّقة المتواصلة لمدَّة خمس سنوات، متبتلا، مجتهدا، محتسبا... إلى أن يتخرَّج...

وقبل ذلك، في سنة 1980م، تحوَّلت دُور الطلبة «دُور الأرقم» إلى مدارس نظامية رسمية، تمشِّيا مع الظروف والأحوال... وقد فهم الأستاذ قوله تعالى، من سورة الكهف: «وليتلطف» (الكهف،19) فهمًا مباينا للفهم التقليدي، الذي يفسِّرها بدلالة القاموس: «وليختفِ وليحذر»... لكن الأستاذ فسَّرها بمعنى «الشفافية والوضوح والظهور اللطيف، الذي لا يعطي الفرصة للشك والريب»... معناه هنا، وفي سياق التدافع الحضاريِّ: بناء مدارس، ذات مقاييس عالمية عالية، قوية ومتميزة، متفوقة ورائدة... تفرض إيقاعها على الأمَّة كلِّها، ولا يقدر أحد على إذايتها أو التنكر لها...

من ذلك التاريخ إلى اليوم تحقَّق للمشروع من الإنجازات ما لم يتحقَّق لغيره، ففُتحت مؤسَّسات في كلِّ مناحي الحياة، وفي كلِّ متطلَّبات الحضارة، إمعانا في صناعة الإنسان السويِّ، وتركيزا على الأوامر التكوينيَّة إضافة إلى الأوامر التشريعيَّة... ففُتحت إلى هذه السنة، أي 2010م، أكثر من 1200 مدرسة في خارج تركيا، في حوالي 160 دولة، تتوزَّع على ستِّ قارات... والآلاف من المدارس، بمختلف المسمَّيات والأشكال والمستويات، في داخل تركيا وفي جميع الولايات...

ثم اقتحمت «جماعة الخدمة» بهذا المنطق مجالَ البحث العلمي، والصحَّة، والاقتصاد، والإعلام... وكلَّ المجالات الأخرى، بفكر حضاريٍّ، يقوده الأستاذ بحكمة وروية، ويستجيب له الأتباع بإخلاص وتفان: جامعات، ومجلات، وجرائد، ودور للنشر، وإذاعات، وقنوات فضائية، ومستشفيات، ومؤسَّسات إغاثة... الخ.

ومن المناسب التذكير بأنَّ الأستاذ يقرِّر أنَّ أعداء الأمَّة ثلاثة، ولعلَّه في ذلك استفاد من أستاذه بديع الزمان النورسي:

- الجهل،
- والفَقر،
- والفُرقة...

من هذه الثلاثية ننطلق - كما يقول الأستاذ مصطفى - لنبني مشاريعنا، وليس لنا فكرٌ إقصائي أو تبريريٌّ... وإنَّما فكرنا عمليٌّ بنائيٌّ حضاريٌّ. وليس هدفنا تركيا فقط، وإنما هدفنا أن نُرشد العالَم كلَّه إلى الفكر القرآني التربوي الأخلاقي، هبة من الله تعالى، وأداء للواجب المنوط بنا...

❖❖❖❖❖❖❖

أغمضت عينيَّ، ثم فتحتُهما... فإذا أنا داخل مستشفى.... لا داخل جامعة، أو كلية، أو مسجد جامع... أنا أمام مدير مستشفى راق، لا أمام مفكِّر مجرَّد أو واعظ محترف، أو صاحب نظريات ونظرات... فكرٌ يسنده فعل، وفعل يسبقه فكر... في تناغم وتناسق نسيناه في عالمنا العربي منذ قرون...

انتهت الحصَّة، وارتفعت الجلسة... وما حلَّت الحضارة بعد في أوطاننا... فلنواصل المسير، لعلَّ الله يحدث بعد ذلك أمرا...

مقالات فاتح القسطنطينية 02

جنازة في مدينة الإسلام

ليس للموعظة لغة ولا لسان...

ليس للعبرة بلد ولا عنوان...

ليس للموت حيِّز ولا مكان...

ولكن ثمة في الوجود قلوبٌ تنبض بالإحساس، تحملها صدور جُبلت على التعقُّل والتذكر والتفكر... وهنالك أرواح لبست أجسادا، وأجساد آوت أرواحا، متى ما اتَّصلت رشحت الحياة من كلِّ جانب، وإذا ما انفصلت دبَّ السكون المطلق في الأوصال، فسُجِّل صاحبهما في قائمة الأموات إلى يوم الدين.

بعض البشر أجساد بلا قلوب ولا أرواح، كأنهم حجر صلد، أو جلمود صخر... وفيهم قال تعالى:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس، لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، ولهم أعينٌ لا يبصرون بها، ولهم آذانٌ لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» (الأعراف، 179).

بعض من الناس، على النقيض من هؤلاء، ولله الحمد، قلوبٌ وأرواح بلا أجساد، وفي مثل هؤلاء يقول الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا ❖ تعبت في مرادها الأجسام

❖❖❖❖❖❖❖

زرت تركيا مرارا، وفي كلِّ مرَّة أكتشف عِبرا جديدة نابضة بالحياة، فأشحن بطارية الإيمان والتقوى في قلبي، وأجد أسباب الإمكان الحضاريِّ في عقلي، فتنشط للمشاريع والمخططات جوارحي... ثم أعود إلى بلدي، وكلي رجاء أن نكون يومًا ما في صف العثمانيين جنودا، ولنصرة دين الله أسودا...

وآخر إشعاع هزَّ كياني وهزَّ العالَمين مِن قَبلي، تلكم الملحمة العظيمة التي نسج خيوطها الذهبية «أسطولُ الحرية»، مصمِّمة على فكِّ الحصار عن غزَّة المكلومة المظلومة، من قِبل جيرانها قَبل أعدائها... فكان للأبطال -بإذن الله- ما أرادوا، بل أكثر مما خطَّطوا؛ ووُلد على يدهم عهدٌ جديد، حان فيه خفوتُ نار اليهود الظلمة، وآن حينها إشراق شمس المسلمين الدافئة. وما كان لهذا النصر أن يتحقق لولا تلكم الأرواح الطاهرة من شهداء القافلة، الذين وهَبوا أرواحهم فداء لحياة الملايين من بني البشر المظلومين... وما خذلت أبطالَ القافلة دولتُهم، لكنها وقفت طودا شامخا وحصنا حصينا بجنبهم...

يومها، تحرَّك وجداني مع الحدث، وتحرَّك في كلُّ عرق نابض، فولدتُ من جديد[2]، أنا الذي أقتَل يوميًّا ألف مرَّة جراء انتكاسات بلاد العرب، وأهل الحي، ممن وصفهم مالك بن نبي بـ«الغاشي».. ونعتَهم آخرون بـ«الرعاع»، لكنَّ أصدق وصف فيهم قول الرسول الكريم: «غثاء كغثاء السيل».

❖❖❖❖❖❖❖

وفي هذه الأيام الصيفية اللطيفة...

المكان: جامع «يونس أمري»، بمنطقة «أتاكوي»، في الجهة الأوروبية من مدينة الإسلام[3].

والزمان: بُعيد العصر من يوم الخميس، أواخر رجب الخير، من عام 1430 للهجرة النبوية.

والحدث: شهود جنازة مهيبة، حضرها الرجال والنساء على السواء، كلٌّ من مصلاَّه... ألقِيَت فيها مواعظ، وتحرَّكت مواجد، وفي كلِّ ما قيل لم أفهم كلمةً واحدة، ولم أفقه جملة واحدة، إلاَّ ما كان تلاوة لآية، أو قراءة لحديث...

أمَّن الحضور على الدعاء، وصلَّينا الجنازة بعد النداء، ثم حُمل النعش إلى مثواه مغادرا دار الابتلاء إلى دار الجزاء.

---

2 نشرت مقالا على إثر خطاب أردوغان، بعنوان: اليوم يوم الميلاد. انظر موقع فيبكوس، وكتاب قافلة الحرية، نشر دار الوعي، الجزائر.

3 مدينة الإسلام: هي إسلامبول، أو إستانبول اليوم، وهي القسطنطينية. ولقد أطلق عليها محمد الفاتح رضي الله عنه هذا الإسم نسبة إلى الإسلام، وشيد فيها المساجد، وأعلى مقامها في تاريخ الأمم.

والحق أنَّ هذه الجنازة كانت أكثر عبرةً لي من جنازات أخرى شهدتُها؛ ذلك أنَّ لغةَ اللسان صمتَت وخرَصت، ثم تركت المساحة شاسعة للغة الوجدان، فرقَّ القلب، ودمعت العين، واستُذكرت الآيات القرآنية العظيمة، والأحاديث النبوية الشريفة، بعضُها مما تلاه الواعظ، وبعضها مما لازم مثل هذه المواعظ:

- «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (آل عمران، 185).

- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ، وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (الزمر، 42).

- «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (الرحمان، 26،27).

ولقد شدَّ انتباهي تكريرُ الإمام قبل الصلاة حديثَ الرسول الكريم، مخاطبا المستمعين: «عش ما شئت فإنَّك ميت»، ذكَرَه مرارا، وبنبرات مختلفة، ثم شرحه، وفصَّله، فأطال فيه؛ وهو في الأصل وصية من جبريل عليه السلام، أوصى بها نبينا الكريم، ثم إنه عليه الصلاة والسلام أوصانا بها، وها نحن نتواصى بها في كلٍّ إلى يوم الدين... قال جبريل: «يا محمد، عِش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واجمع ما شئت فإنك تاركه، واعمل ما شئت فإنك مجازىً به، واعلم أنّ شرف الإنسان قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس».

❖❖❖❖❖❖❖

الصلاة هي ذات الصلاة، في القسطنطينية أو في مكّة، في إيران أو في طيطوان... أربع تكبيرات، وتلاوة للفاتحة، ودعاء... ولقد جال بخاطري عقبها سيل من الملاحظات والتصويبات:

❖ منها أنني لو كنتُ - لا قدَّر الله - رهينَ الانتماء المذهبيِّ الإقصائيِّ، لما اعتقدتُ إمكان أن يكون الهالك في رحمة الله، ذلك أنَّ العصبية المذهبية حملت بعض الحركات، وبعض الجهات، وبعض الجماعات، إلى الاستئثار برحمة الله، ودفعتهم إلى احتكار رضا الله، وأغرتهم بأنهم هم

وحدهم وارثو الجنان، أمَّا من خالفهم فهو من المبعَدين، مهما ارتقى في سلَّم الإسلام والإيمان.

ألا لعنة الله على ضيق الأفق...

ألا لعنة الله على التعصُّب والتحجُّر...

❖ ثم إنّ الإسلام -بحمد الله - ونحن في مدينة الإسلام- ليس محلِّيَ النزعة، ولا قرويَ المشرب... الإسلام لم يختصَّ بقبيلة، أو عرق، أو فئة دون أخرى... الإسلام دين عالميُّ اللحمة، كونيُّ الوجهة: «رحمة للعالمين» (الأنبياء، 107)، «كافة للناس» (سبأ، 28)... شاء من شاء، وأبى من أبى...

«قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم...» (الإسراء، 100).

بهذا المنطق القرآني المتعالي، كان محمَّد الفاتح -رضي الله عنه- قائدا مسلما، وكان بديع الزمان النورسي عالما مسلما، ولا يزال فتح الله كولن مجدِّدا مسلما... فهُم جميعا إخوة لأمراء وعلماء ومجدِّدين مسلمين من الجزيرة ومصر، ومن الجزائر وعمان، ومن كازخستان والهند، أو حتى من أمريكا وأوروبا... من العالم كلِّه، ومن الأرض قاطبة... حقا: «الإسلام رحم بين أهله»، «والحق رحم بين أهله»...

❖❖❖❖❖❖❖

ومما استذكرتُ دبر الصلاة أولئكم الناس الذين يسافرون إلى شتى البلاد، ولا يغادرون فيها الثلاثي المعتاد: السوق، والفندق، والمتحف... هذا إن زاروا المتحف.

فلا هم يتعرَّفون على الناس، ولا هم يَغشون المساجد، ولا هم يعتبرون أو يتعلَّمون؛ ولا يهرولون إلى جامعة، أو إلى عالم، أو مكتبة، أو دائرة للحوار...

وبعض الناس لا يعرف من البلاد إلاَّ معالمها السياحية، ثم يسَّارع إلى الحكم عليها بشتَّى أشكال الحكم القاسية، وقد يُخرجها -ظلما وزورا- من ربقة الإسلام؛ والحالُ أنَّه هو الذي يصطاد في الماء العكر، فلو صفى معدِنه لصفى مورده ومصدره... ولله في خلقه شؤون.

❖❖❖❖❖❖❖

أسدَلَ مشهدُ الجنازة ستاره، وعاد الحضور إلى بيوتهم... إلى حين، وقصدتُ منزلي... إلى أجل؛ لا أعرف من بينهم أحدا، ولا يعرفني أحد؛ لكنني تيقَّنت أنهم إخوة لي في الملَّة، ودعوتُ الله لهم بالتوبة والمغفرة والرضوان، راجيا أنهم دعوا الله لي بالتوفيق والهداية والجنان...

جمعَنا الله في رحمته يوم لقائه، وجمع بيننا في جنة الخلد إخوانا على سرر متقابلين، ويومها سنتعارف أكثر، وسنتذكَّر أمسيةَ مدينةِ الإسلام، ونحمد الله على هذه الجنازة وعلى هذا الحدث...

مقالات فاتح القسطنطينية 03

«كِرْكُلَارْلِي»: قرية آوت ونصرت

إنَّه العشُّ الذي آوى عصفورا مبلَّلا، فقَدَ - فجأة وبلا سابق إنذار - الحضنَ الحاضن، وعدِم الحصن الحصين؛ وألفى روحَه المرهفة الليِّنة الرقيقة تُصارع أعتى العواصف والإعصارات، في بدايات ليل بهيم، لمَّا تبدُ أمارات الفجر الصادق في أفقه بعدُ... فيا ويح العصفور ليلتَها، ذلك الذي أحدق به الخطر؛ ويا سعد العشِّ يومها، ذلكم الذي آوى ونصر...

بل إنَّ عصفورنا كان في تلك الحال، على حدِّ ما جاء في «ألوان وظلال»:

«حمامةٌ بيضاء كالثلج،

رقيقة وادعة كالزهر،

وحولها شرٌّ وأشرار،

ومخلب وناب،

فيا ويل الحمام،

من نيوب كالمنشار...»(ألوان وظلال، ص114).

لكنَّ الله فتح أمام ناظرَي الحمامة المسكينة «طِيبةً جديدة»، فكان لها موعد مع «يثرب الجديدة»؛ وكأنَّ أهلَها قد سمعوا همسات الرسول الكريم عليه السلام، وهي تنفث في روع الأنصار: «أيُرضيكم أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون أنتم برسول الله».

التفتَ أهل «كِرْكُلَارْلِي» إلى بعضهم، آحادُهم وزرافاتهم، وتفاءلوا خيرا، فاعتبروا قريتهم «طيبةَ العصر»، وهي التي آوت فتح الله، بعد محن «أدرنة» الهوجاء...

وفتحُ الله طالب مجدٌّ في قسم من أقسام رسول الله العظيم... فما بال الزمان الذي امتحن المعلِّم لا يمتحن تلميذه، ولو بعد حين؟

❖❖❖❖❖❖❖

على متن سيارة مريحة، بجوار رفقة طيِّبة، حملني الأُنس[4] إلى ربوع «كِرْكُلاَرْاَلِي» (kırklareli)؛ حالِما بساعات أقضِّيها على أرض القرية التي آوت ونصرت، قرية يصعب نطق اسمها على العربيِّ، كما صعُب فهم كنهها على الأجنبيِّ: هي سرٌّ من أسرار تركيا العجيبة، موقعُها غرب البلد على بعد كيلومترات من «بلغاريا»، التي كان بينها وبين الجارة ما بين الجار وجاره، من أوجُه شبه أحيانا، ومن حزازات أحيانا، ومن تأثير وتأثر دائما وأبدا.

إنها قرية تقع على حدٍّ من حدود جغرافية الإسلام، إنها ناصية ناصعة في «جسم الإسلام»، إنها جبينه الواسع العريض؛ فهي تارة تلتفت نحو الجنوب فتجابه حضارة «اليونان» بما فيها وبمن فيها، وهي أخرى ترنو إلى الشمال فتقف أمام لون أحمر قاتم[5]، ملأ الدنيا لعقودٍ، فصُبغ من صُبغ، ونجا من نجا، ثم غادر وقد ترك «آثار الدم القاني، ملطِّخا الظاهر والباطن، وذاهبا بروعة المظهر والمشهد، وبروع المخبر والمحتد»...

«كِرْكُلاَرْاَلِي» لمن يدخلها أوَّل مرَّة مِثلي، تشبه جنديًّا لم ينضُ ثوب الحرب عنه، فهي قلعة عسكرية منذ القدم، ثم ما لبثت أن تحوَّلت إلى مأوى جديد للاَجئي البلقان من إخواننا البوسنيين الأطهار، يوم اكتووا بشرٍّ لا يُطاق، ويوم وقفَ العالم كلُّه متفرِّجا أمام مجزرة كانت وستبقى عارا وشنارا على جبين العصر والديقراطية، وعلى مسلمي هذا الزمان، وعلى النظامِ الدولي، والمؤسَّسات العالمية...

❖❖❖❖❖❖❖❖

لقرية «كِرْكُلاَرْاَلِي» سحرٌ خاص، فأهلها غايةٌ في البساطة والرقَّة ورهافة الحس، بل والعفويةِ والهدوء، وسرعةِ البداهة... ليسَ بينهم غريب... فمَن نزل بينهم صار منهم قبل أن يرتدَّ إليه طرفُه، ولا تعرفُ الوحشةُ إلى قلب

4 كنت رفقة الأستاذ الكريم أنس أرجير، من مواليد هذه المنطقة؛ وهو صاحب كتاب حول فكر الأستاذ.

5 إشارة إلى الشيوعية.

نزيلها مَسلكا... وقريتنا في هذا ذات شبه آخرَ بالمدينة المنوَّرة، ويثرب الخير، وطِيبة الطيبة.

آوت القريةُ ونصرت مرَّات ومرَّات، ولكنَّ التاريخ المعاصِر سجَّل لها يومين من أيام الله:

يوم آوت فتح الله، ويوم آوت لاجئي «البوسنة»...

فإن كنَّا قد أشرنا إلى اليوم الثاني، فإنَّ الأوَّل كان يومَ اصطلى الأستاذ فتح الله بنار «أدرنة»، ونال منها نزرا مما نال المصطفى عليه السلام بالطائف... فكان لأهلها فضلُ الأنصار وأجرُهم، ولقد وجد الرائدُ فتح الله مِن بين أهلها شبابا كالصخور، ورجالا كالصقور، لا يخافون الموت، ولا يخشون المهالك، شبابا يعشقون التحديات والمغامرات... إلاَّ أن يبلغوا الذروة أو يهلكوا دونها... لكنَّ هؤلاء افتقدوا مَن يرسم لهم خطَّ المسير، إنهم لم يُرزقوا من يحدِّد لهم الأهداف الدقيقة، ويصلها بالغايات العميقة...

فجاء فتح الله على قَدَر...

❖❖❖❖❖❖❖

سُرعان ما اكتشف فتحُ الله هذا السر، فشمَّر على ساعد الجد، وأسَّس مِن بينهم ثلَّة من الشباب الربَّاني المحمَّدي، وجنَّدهم للخدمة، وأخلصهم لزرع الخير، فكانوا له طيِّعين كموسى للخضر، عليهما السلام، يوم قال:

«سَتجدني إن شاء الله صابرا، ولا أعصي لك أمرا» (الكهف، 69).

ولعلَّ هؤلاء أحيانا قد خالفوا وعدهم ولم يصبِروا، ولكن أنَّى لهم أن يصبروا وما صبر نبي الله موسى، وهو مِن أولي العزم، فالقاعدة التي لا تتخلَّف إلى أبد الأمد، يختصرها قول الحكيم بإذن من ربِّه العليم:

«إنك لن تستطيع معي صبرا، وكيف تصبر على ما لم تُحط به خبرا» (الكهف، 68-67)

ولكن، ما أضرَّ موسى نفاذُ صبره، ولن يضرَّ أهلَ «كِزْكُلاَزَالِي» نفاذُ صبرهم... وما كلُّ الناس يدرك أسباب الأمور، ولا أسباب أسباب الأمور...

وقد كان فتح الله، عازما لمنظومة أسباب تضع الحجر الأساس لنهضة جديدة في تركيا والعالم الإسلامي أجمع، وما «كِرْكُلاَرْاَلِي» إلاَّ محطَّة من محطَّاتها، ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة...

❖❖❖❖❖❖❖

وما كنتُ حاضرا يوم غادر فتحُ الله القرية، بعد ستَّة أشهر من المكث تحت ظلالها، وذلك يوم الجمعة الحادي عشر من مارس سنة 1966م... أصلا لم أولد بعدُ، ولعلِّي كنت يومَها جنينا في بطن أمِّي؛ لكنني على يقين أنَّ القلوب بلغت الحناجر، وأنَّ الدموع سقت التلال والوهاد، وأنَّ الحزن خيَّم على الربوع، فأحالها إلى ما يشبه «المأتم»، وحين الشدِّ والفراق والمحن تُبلى الأنفس، وتظهر الطباع، ولقد ظهرت طباع بعض الناس، ممن ظنَّ أنَّ فتح الله صار - للأبد - حظَّ «كِرْكُلاَرْاَلِي»، ولم يظنَّ يوما أنه سيغادرها إلى «إزمير»، أو إلى مطار الخدمة ومصعدها، كما يحلو لي أن ألقبها.

غادر فتح الله، بُعيد صلاة الجمعة، وما غدَر...لكنه، صابر وصبر...

ولم تكن المغادرة بأيسر عليه منهم، ولكنَّه تجلَّد ولم يُرهم من نفسه ضعفا؛ حتى لا يضعُفوا، ولا يرتبطوا بالشخص، بل بالفكرة... على وقع: «من كان يتبع فتح الله ففتح الله ذاهب، ومن كان يسير على نهج الخدمة فالخدمة باقية إلى يوم الدين...»

❖❖❖❖❖❖❖

ما إن وصلنا «كِرْكُلاَرْاَلِي» قبيل المغرب بقليل، حتى كنَّا على موعد للعشاء بالكفتة مع ثلَّة من الشباب والأيمة، ولقد قيل لنا: «مَن دخل «كِرْكُلاَرْاَلِي» ولم يأكل كفتة، كمن وصل ماء زمزم ولم يرتو». ثم صلَّينا في مسجد صغير قديم. وبعدها أوينا إلى مقهى رحب، وبه عقدنا «مجلسَ صُحبةٍ»، جمعَ القلوب إلى بعضها، والألسنُ مختلفةٌ، لولا أنَّ الخبير «أنس» آنسنا بالترجمة الفورية، فزاد لمجلسنا روعة إلى روعته... وقلت حينها: «ما أعظم ديننا، فهو الجامع، حتى وإن اختلف كل شيء: الأعراق، والألوان، واللغات، والأعمار، والبلاد، والمستويات...».

حملَنا الحديث إلى الجزائر في العهد العثماني، يومَ قال أبو عبيد الله الزوواي لعرُّوج مستنجدا به ضدَّ العدو الكافر من الإسبان: «الجزائر لك، أو لأخيك، أو للذئب» فاستجاب وحملَ الراية، ودحر الشرك...

ثم عادت سفينةُ الحوار في مجلسنا إلى «سعة الأفق»، وإلى «رسالة المسلم في هذا العصر»، وإلى «وجوب التلاقي والتفكير الإيجابي المشترك، بعيدا عن منظومة الإعلام المزيَّفة»... إلى أن حطَّت بنا «طائرة الكلام» عند الشاعر نجيب فاضل، ذاك الذي كتب يوم استقلَّت الجزائر قصيدة رائعة بعنوان: «خيل الجزائر»... واطَّلعتُ عليها بعد أيام في مكتب صديقي الكريم أنس، وهي بالتركية غير مترجمة...

ولقد تساءلت حينها: لماذا نجيب فاضل بالذات؟

وعلمتُ من فريد الأنصاري - رحمه الله - أنَّ الشاب فتح الله يوم تولى الإمامةَ في القرية الصغيرة «كِرْكُلاَرْاَلِي»، استدعى الشاعرَ نجيب فاضل، وما كان في الحسبان أن يستجيب، وهو حينها نجمٌ في سماء تركيا، تقصُر عن أفقه مدن كبرى مثل «أنقرة» و«إزمير» و«أدرنة»، فما بال القرية النائية البعيدة تدلي بدولها مع الدلاء، وترسل رسالة دعوة إلى الشاعر الكبير، وهي موقنة أنَّ طلبها لن يتحقَّق، إلاَّ بمعجزة، وعصرُ المعجزات قد ولى؟

يقول الأنصاري: «فأن يحلَّ الأستاذ نجيب فاضل بـ«كِرْكُلاَرْاَلِي» ضيفا على فتح الله، وهو الداعية الشاب المطارَد في كلِّ مكان، له أكثر من دلالة»، ويمكن أن نضيف كذلك: «أن يحلَّ الشاعر على هذه القرية المباركة، أمرٌ له أكثر من دلالة...»

يقول الأنصاري واصفا تلك اللحظات السعيدة بأدبه الجم: «في تلك الليلة التفَّ الشباب حول نجيب فاضل ببيت أحدهم، واجتمعوا معه في العَشاء جميعا على مائدة واحدة... وهنالك اكتشفَ نجيب فاضل عن قرب الداعيةَ الشاب فتح الله كولن... كان الشاعر الروائي يقرأ في وجه فتح الله رواية درامية، سيكون لها أثر كبير في تغيير مجرى التاريخ»

❖❖❖❖❖❖❖

ولن أنسى ما حييتُ تلكم الطُّرفة التي قصَّها الأنصاري يوم ودَّع الشاعر العبقري نجيب فاضل «كِرْكُلاَزْاَلِي»، إذ كانت بها جريدة صغيرة محلية - ضيقة الأفق - اسمها «أطا يولو» «وكانت تنشر مقالات ضدَّ الإمام فتح الله باستمرار.. ثم نشرت يوما مقالا ضدَّ الأستاذ نجيب فاضل - بعد زيارته -، فأرسل فتح الله نسخة من المقال للشاعر الكبير، فكان أن نشر الأستاذ نجيب بعدها في مجلة «الشرق الكبير» - الواسعة الأفق - صورة كاريكاتورية ساخرة، هي عبارة عن مشهد كلبٍ كبير ضخم الجثة، وإلى جانبه كلبٌ صغير جدًّا، وكتب تحت الكاريكاتور تعليقاً ساخرا نصه: «نحن نواجه هذا الكبير، فمن أين ظهر هذا الصغير».

❖❖❖❖❖❖❖

أمَّا نحن، فودَّعنا مجلس فتح الله ونجيب فاضل، وعُدنا إلى مجلسنا وصحبتنا، تدور بيننا كؤوس الشاي الأحمر، وفناجين القهوة التركية، حتى ناصَف الليل أو زاد عن النصف، وودَّعنا إخوةً لنا في أقاصي البلاد الإسلامية، إنهم ممن قال فيهم الحكيم: «ربَّ أخ لك لم تلده أمك»، نحسُّ سويا، ونفرح سويا، ونحزن سويا، ونفكر سويا، ونعمل سويا... حتى وإن طالت المسافة وبعُدت الشقة بيننا...

ودَّعت إخوتي وأنا ألعن ضيق الأفق بملء في: «لعن الله ضيق الأفق... لعن الله ضيق الأفق... لعن الله ضيق الأفق»، ذلك أنَّ ضيق الأفق يقتل المواهب، ويهدر الطاقات، ويوجد التربة الخصبة لميلاد «فراعنة صغار» و«مدَّعين كبار»... وما أكثر هؤلاء في بلاد الإسلام اليوم...

❖❖❖❖❖❖❖

برهةً وجَّهت وجهتي شطرَ بلدي وموطني، وفكَّرت في أهلي وأقربائي، ودعوتُ الله لي ولهم بسعة الأفق، وبالتوفيق، وبالتمكين، فسميت هذا الدعاء «دعاء كِرْكُلاَزْاَلِي»، قلت فيه:

«اللهمَّ وسِّع لنا في قلوبنا وعقولنا، كيما نستوعب الأرض والسماوات، وقد وسِعتنا رحمتك...اللهمَّ لا تُمت مواهبنا بالانتماءات الضيِّقة... ولا تجعلنا ممن يهدر طاقات الأمَّة بالعصبيات الخانقة...

أرضُك يا ربِّ رحبة، وكونك أرحب... وروحي متشوِّفة للسياحة من طرف الكون إلى طرفه، عبر الملايير من السنوات الضوئية... اللهمَّ إنَّ همَّتي متوثِّبة إلى ما وراء المادة والدنيا والعالَم الجسماني، إنها آملة في عطائك ورحمتك، طامعة في رضاك وجوارك...

اللهمَّ أعط كلَّ واحد من أهلي وإخوتي، وكلَّ واحد من المسلمين، سؤله وطلبه، ورضِّه وأرضه، ووسِّع في مداركه ومدارجه، وفي فلاته وفؤاده، وفي عقله وعلمه، وفي خلقه وأثره... آمين... آمين... يا ربَّ العالَمين»

مقالات فاتح القسطنطينية 04

وقف الكتاب والصحفيين أو: من إسلام القوة، إلى قوة الإسلام

مع مرور الوقت، وأثناء التأمُّل في النصوص التأسيسيَّة للإسلام، والنظر في حقيقة المسلمين عبر تاريخهم المشرق، ومقارنة ذلك بواقعهم اليومَ في عهد النكسة والنكبة؛ تأكَّد لي بما لا يدع مجالا للشك، أنَّ الإسلام نزل للكبار، لا يفهمه إلاَّ الكبار، ولا يستطيعه إلا الكبار....

نعم، اقتعتُ أنَّ الإسلام لا يأبه بالصغار، ولا يعتني بالأصفار، ولا ينفعُ من آثر سُكنى الغار، وإضرامَ النار، وملازمة الفار...

فكلَّما أخلد إنسان، أو أمَّة، إلى الأرض، صار الإسلامُ أبعدَ عنه - أو عنها - من بُعد مشرق الكون عن مغربه؛ أي أنَّ الملايير من السنوات الضوئية تحول بين الإسلام الحقِّ وبين المتخلفين المنتكسين المرتكسين... فلا إسلام بلا قوَّة، ولا قوَّة بلا إسلام، هما وجهان لعملة واحدة، واسمان لحقيقة واحدة؛ دع عنك العملات المزوَّرة، والأسماء المحرَّفة... فاليوم وجب علينا أن نتحوَّل من «إسلام القوة» إلى «قوة الإسلام» إيمانا بهذا البعد الحركي العالمي الحضاري لديننا الحنيف.

كان نبي الرحمة - وهو في لأعلى مقام من مقامات قوَّة الإسلام - يحاور المشركين، والمنافقين، والملحدين، والمتمرِّدين... ويدعو الجميع إلى الاحتماء بالدليل، والجدل بالبرهان:

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (البقرة، 111)؛

بل إنَّ الحوار عند رسول الرحمة لا ينطلق من مبدأ: أنا على صواب، يقينًا... وأنت على خطأ، يقينًا! بل على قاعدة:

«وإنا أو إياكم لعلى هدى، أو في ضلال مبين» (سبأ، 24).

مِن هذه النافذة أطلَّ علينا «وقف الصحفيين والكتَّاب»؛ وهي مؤسَّسة

خيرية، جمعوية، يدل عليها وصفُها بالوقف، ذات مقاييس عالمية عالية؛ أنشئت بأمر من الأستاذ فتح الله كولن سنة 1994م، بل هو الذي خطَّ لها خطواتها الأولى بأناة، ورسم لها مخطَّط السير بروية؛ فكانت البداية من تركيا، وفي تركيا، لأجل تركيا؛ ثم ما لبثت أن صارت عالميةً بكلِّ المقاييس.

كان التشنُّج سيِّدَ الموقف في تركيا بداية الثمانينيات، وكان الناس يتقاتلون فيما بينهم، يقتل الواحد منهم الآخر لمجرَّد كونه من الجهة الأخرى، حتى إنَّ الناس لا يخرجون من بيوتهم ليلا، وإذا صادف أن خرج أحد فإنَّ احتمال أن يُغتالَ أو يؤذى قائم وممكن؛ ويومها تأمَّل الأستاذُ في الحال والمآل، فرأى أنَّ المثقفين والكتَّاب والصحفيين والسياسيين... وكلَّ من له أتباع ومستمعون ومهتمون، هو الأصل في المسألة، فإن تسامحوا تسامح الناس، وإن تناحروا تناحر الناس، ووجد أنَّ الإسلام هو دين السلم والسلام، بلا منازع، وأنه دين الرحمة والمرحمة، بلا مثيل، بل هو دين التواصي بالصبر والحبِّ... فشرَع هو نفسُه في محاورة كلِّ الجهات، حتى التي يبدو أوَّل وهلة أنَّها أعتى أعداء الإسلام والمسلمين، فكان يزورهم ويدعوهم لزيارته، ويدعو الناس في الخدمة إلى كسب قلوب كلِّ من يعرفونه من أبناء البلد، مهما كان دينهم، وحزبهم، وإيديولوجيتهم، وسلوكهم... يقول مدير المركز: «علَّم الأستاذُ كلَّ واحد منَّا أن يعتزَّ بإسلامه، ويثق في دينه، ويخلص في عبادته، ويحاور كلَّ أحد، بلا استثناء». وكان يقول لنا: «إذا مرض أحد ممن تختلفون معه، فيجب أن تزوروه في المستشفى، حتى إذا فتح عينه لم يجد سوى أهله وأنتم... هكذا كان رسول الرحمة يفعل».

ولقد استجابت لدعوة الحوار كلُّ الجهات، مِن أعلاها إلى أدناها، وشارك فيه أكبر أسماء البلد، إذ كانوا جميعا مبهورين من كونه جاء مِن «عالم دين»، ومصطلح «عالم الدين» له دلالة تقليدية سكونية، لا حضارية ولا حركية، غير أنَّ كولن خالف النموذج المعتاد، وغيَّر البراديم الكلاسيكي، وأظهر شكلا جديدا، غير مألوف في تركيا يومها، للعالم المسلم، بما آتاه الله من مواهب فطرية، ومن قدرات علمية، ومن آفاق مَعرفية، ومن رؤى مستقبلية...

اليوم، على إثر هذه البدايات تأسَّس وقف الكتَّاب والصحفيين، وهو يحوي سبعة منتديات تعنى بالحوار، هي:

- منتدى «أبانت» (Abant platform) وهو منتدى عالمي للحوار بين الحضارات، وبين الديانات، وبين التيارات الكبرى... وقد نظم الكثير من الملتقيات العالمية، من أرواسيا إلى أمريكا... إلى الكثير من مناطق الصراع في العالم.

- منتدى الفنّ والثقافة (Culture and art platform): يشارك فيه أكبر المثقفين والفنانين، والشخصيات الشهيرة، من أمثال لاعبي كرة القدم، والمغنين... أي كل من له شعبية في مجال الإعلام، ويتناقشون قضايا التسامح، والحوار، وغرس قيم الحبّ، والصداقة، والمعاشرة الحسنة، ونبذ سلوك العنف والإقصاء والتصادم... الذي يودي بالبلد إلى المهالك لا محالة.

- منتدى الصحفيين (Medialog platform): وهو خاص بالصحفيين من كلّ وسائل الإعلام، ومن كلّ الاتجاهات، يطوّرون فيما بينهم أسلوبا صحفيا هادئا مسؤولا، ويزيلون فتائل الجدل الخانق، ويهجُرون أسلوب التعيير والشتم والسبّ غير المبرَّر، وكلّ ما يشوّش على القيم والأخلاق وعلاقات المواطنة...

- منتدى حوار الأديان والثقافات (Intercultural dialog platform): وهو شبيه بمنتدى «أبانت»، لكنه يهتمُّ بداخل تركيا، وينظم حوارات بين المسلمين والمسيحيين، وبين المسلمين والموسَويين، وبين المسلمين فيما بينهم، على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم... ويزيل الوهم والتهمة التي تقول: «وراء كلّ فتنة وعنف في العالم تقف الديانة سببا»، بل يُظهر أنّ الدين بريء من هذا، وإنما المصالح السياسية، والحسابات الضيقة، والفهم الخاطئ، هو السبب والدافع والباعث لكلّ عنف وشدّة.

- منتدى المرأة (Women's platform): للحوار بين النساء، من مختلف المشارب والمضارب، حول اهتماماتهنّ، بعيدا عن الادعاءات، والحسابات الضيقة، وبذلك يمنعن توظيف المرأة كشعارات ذات حساسية مرهفة وبالغة، من قبل المغرضين والفتانين...

- منتدى البحث العلمي (Research platform): وهو منتدى للبحث العلمي، والطرحات النظرية والفكرية والعلمية العميقة، وهنا تتمُّ مناقشتها بدون خلفيات إيديولوجية أو حسابات لا أخلاقية.

- منتدى أوراسيا (platform Eurasia): وهو منتدى يدور حول قضايا وراسيا (روسيا، وبيلوروسيا، وكازاخستان، وقرغيزيا، وطاجيكستان،

وأوزبكستان)، ويشارك فيه أبناء هذه البلاد؛ يُسهمون في نزع فتيل الخلاف بين أبناء الأرض الواحدة، والتاريخ الواحد، والحضارة الواحدة؛ لصالح نموهم ورقيهم، ولأجل وضع أكثر سلاما وأمنا وتقبلا للآخر.

ولقد أصدر «وقف الصحافيين والكتاب» العشرات من الكتب والمؤلفات، بمختلف اللغات، كما أنَّه يُصدر مجلات دورية وشهرية، حول قضايا الحوار، بالتركية والانجليزية، راقية الإعداد والطبع، وواسعة النشر والتوزيع.

وقد أنشئ حديثا «مركز بحوث فتح الله كولن»، ضمن الوقف، وهو المسؤول عن البحث، وعن تنظيم مؤتمرات عالمية، لمناقشة فكر الأستاذ كولن، فقد نظم ملتقيات في أرقى الجامعات العالمية: في أمريكا، وروسيا، والسويد، وألمانيا... وغيرها. أمَّا عن الملتقيات المنظمة في العالم العربي - مصر، اليمن، الأردن...- فهي بإشراف مجلة «حراء» الغراء.

ولقد كان سؤالي لمدير المركز الدكتور فاروق عن مدى الاستفادة من هذه الروح أولا، ومن الفكرة ثانية، ومن المؤسَّسة ثالثا، ومن الخبرة رابعا... وخامسا، وسادسا... فكان الجواب أنَّ «قلوبنا وعقولنا مفتوحة لاحتضان أيِّ تعاون في هذا الشأن، من مثل استقبال أساتذة من العالم العربي، أو عقد منتديات حوار على هذا الأساس في أيِّ بلد عربي...». لكن ثمة حساسية وصعوبة، لم يُخفها المسؤول عن المركز في شأن البلاد العربية.

❖❖❖❖❖❖❖

هكذا، يكون الإسلام: مبادئُ كبرى، تجد أفعالا كبرى، من رجال كبار، وبالتالي تحقِّق إنجازات لا حدَّ لها، وتنشر خيرا عميما لا مثيل له، فيصير المسلم في عالَم اليوم هو مَن يقود قاطرة الحضارات، ولا يبقى في ذيل الأمم والمدنيات، يلهث وراء السراب، يلعق دماءه وجراحاته، يثير الشفقة عند القريب، ويستوفز الشماتة عند البعيد...

الإسلام حضارة، والإسلام عمارة، والإسلام حركية وفكر، وعلم وعمل، وتخطيط وتنفيذ، وإبداع وريادة... هكذا لنكن، أو لا نكون... أمَّا ديننا فهو أعظم، وأرحب، وأوسع... وصدق الله العظيم:

«اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا» (المائدة، 03).

مقالات فاتح القسطنطينية 05

«زمان» و«جيهان» حين يصير الإعلام نظيفا...

ارتبط اسم الإعلام عبر العالَم، مشرقا ومغربا، بالقذارة، والفساد، والعداء للقيم، ونشرِ الرذائل، والاستثمار في الفضائح والأعراض، والجري وراء السبق الصحفيِّ المربح، حتى ولو كان كاذبا؛ وقلَّما تتمُّ مراقبة ما يأتي في الإعلام من معلومات وأحكام، فهي مثل نهر جارف، يُهلك الحرث والنسل، ولا يحاسبُه أحد...

مِن أجل ذلك تتخذه الجهات النافذة، والأطراف المتحكِّمة، والأنامل المحرِّكة «لماريونات الشعوب»... تتخذه وسيلة لتحقيق مآربها، مستثمرةً بذلك في سفاهة الناس، على شاكلة فرعون الذي «استَخفَّ قومه فأطاعوه» (الزخرف، 54)، غافلين - حتى وإن كانوا من المسلمين أحيانا - عن تحذيره تعالى من الشياطين وغواياتهم، بقوله سبحانه:

«فاصبر إنَّ وعد الله حقٌّ، ولا يستَخفنَّك الذين لا يوقنون» (الروم، 60).

والاستخفاف كما في أدبيات التفسير وأصول اللغة العربية هو: «الاستفزاز، وحمل العقول على الخفَّة»، لكن لا يكون الاستخاف إلاَّ إذا كانت لدى المستخَفِّ بهم «قابلية للاستخفاف»...

«زمان» و«جيهان»، مؤسَّستان إعلاميتان خارج المألوف، ذلك أنهما تضربان بجذورهما في أرض القيم والأخلاق والمسؤولية الشرعية، قبل المسؤولية القانونية، والذي كان له الفضل في التأسيس هو المفكِّر الكبير، صاحب المشروع الحضاري المتميز «الأستاذ محمد فتح الله كولن».

ما إن سألنا مدير الوكالة عن الفرق بين هذه وغيرها من المؤسسات

الإعلامية العالمية، حتى أجاب، وبوضوح: «عادة ما لا تجتمع القيم مع الاحترافية، فإذا ما كانت المؤسسة محترفة جدًا فقدت القيم، وإذا ما كانت ذات بعد قيميّ، كانت ضعيفة وهزيلة في مستواها الاحترافي، أمّا ما نحن عليه فهو الجمع بين الاثنين، والإسلام أساسا جاء ليحقق الجمع بينهما».

جريدة «زمان»، جريدة يومية، تصدر بدايةً باللغة التركية، وهي الآن تصدر ورقيا بالانجليزية، ورقميًا بالعديد من اللغات، منها الألمانية والفرنسية...! هي الأولى في تركيا، وتطبع يوميا حوالي مليون نسخة، تباع في العديد من النقاط عبر العالم، ولقد شاركت في مسابقات عالمية للتصميم والعمل الصحفي وفازت بأعلى الجوائز... لها مطابعها الخاصة بها، وتُصدر مجلّة أسبوعية تابعة، هي مجلة «أكسيون»...

البناية غاية في الإبداع والجمالية، زُجاجية مفتوحة، ذات سبعة طوابق، لها بهو كبير، يشرف على كلّ الطوابق، وكلّ شيء يسيّر باللمسات الإلكترونية، ويعمل فيها المئاتُ من الموظفين، من الجنسين، من مختلف بلاد العالم، وبمختلف اللغات، والتخصُّصات، والاهتمامات...

وفي سؤال: «ما هو حضور الأستاذ كولن في المشروع؟»

قال مدير الوكالة: «هو الأب المؤسِّس، وهو صاحب الفضل، وليس للجريدة عليه فضل، فثقة الناس فيه، وتوجيهاته الحكيمة، هما سبب النجاح والتميُّز، وفي كلّ يوم جُمعة تصدر صفحةٌ خاصة بالأستاذ، تنشر فيها أفكاره وتوجيهاته، والأجوبة على الأسئلة التي تُطرح عليه، ونظراته في مختلف القضايا...»...

ولقد علمنا من بعض المقرَّبين، أنَّ الأستاذ يطالع كلَّ الأعداد، بعناية فائقة، ويوجِّه، ويصوِّب، وينصح... بلا ملل ولا كلل، فهو بمثابة الميزان القسط، والمرشد العدل... الذي يتخذ من الآية القرآنية، ومن سيرة المصطفى، ومن القيم السامية، مرجعا، وموئلا، وحكَما...

علمًا أنَّ الجريدة بدأت صغيرة بعشرة آلاف نسخة، ونمت طبيعيا، لكن بفضل الإيمان والصدق والتفاني، وبفضل الرؤية الواضحة للأستاذ، والخطِّ المتسامح والمتفائل الذي دعا إليه «البراديم كولن»؛ تجد أنَّ القراء ليسوا جمعيا من توجُّه واحد، بل كل الأطياف في تركيا تتخذ الجريدة مصدرًها الموثوق، بل والكثير من الجهات الرسمية تعتمد عليها، وتستند إليها، واثقة من صدقها.

والجريدة تنأى عن كلِّ ظنَّة في أحد، أو خدش للعرض، أو حتى قبولٍ أو رفضٍ بناءً على الانتماء... فإن أصابت جهةٌ ما، مهما كانت، ساندت الجريدةُ هذا الصواب، ودافعت عنه، وباركته؛ وإن أخطأت جهةٌ ما، مهما كان مصدرها، نقدت الجريدة هذا الخطأ، ولا تبالي... فليس للجريدة مصلحة، إلاَّ مصلحة القيم والصدق والسلم، بل وروح الإسلام.

قد يبدو فيما أقوله - لدى البعض - نوعٌ من المبالغة، لكن ليس ما ذكرته رأيي أنا لوحدي، وإنما هو رأي الآلاف من الزوار للجريدة، ومن القرَّاء، بل إنَّ النصوص متوفرة في «النت»[6]، والجريدة تطبع يوميا، ولمن أراد أن يستقل برأيه وحكمه فليفعل ذلك دون حائل؛ إذ ليس الإعلام ممَّا يخفى على أحد...

أمَّا وكالة «جيهان»، فهي وكالة أنباء، ذات سيط عالمي، تزوِّد «زمان» وغيرَها بالجديد، وتصنع الأخبار بما تملك من قدرات فائقة في كامل أرجاء تركيا، وفي الكثير من النقاط عبر العالم؛ والجميل فيها أنَّ فيها قسما عربيا، ولها اهتمام بقضايا المسلمين، وبخاصة فلسطين وغزَّة، فكلُّ مظلمة يتعرَّض لها إنسان تدفع الوكالة للوقوف بجوار المظلوم... ولقد قادت المؤسَّستان حملة إغاثة لغزة، أوان حصارها، وساهمتا في جمع إعانات، وفي تنوير الرأي

6 مواقع وكالة جيهان: www.cihanmedia.com

جريدة زمان: www.zaman.com.tr

زمان اليوم، بالانجليزية: www.todayszaman.com/tz-web

زمان باللغة الفرنسية: www.zamanfrance.fr

العامُ؛ حتى لا يضلَّل، ولا يستخفَّ... فنجحتا في ذلك أيما نجاح.

كلُّ القنوات، والجرائد، والإذاعات، والجهات الرسمية، تستقي معلوماتها من «جيهان»، ولذا يزداد عليها الثقل، ويلزمها بالاحترافية، والصرامة، والوضوح... وهو ما هي عليه الآن، بحمد الله تعالى...

ويزور المؤسَّستين سنويا ما يزيد على أربعة آلاف زائر، من كلِّ بلاد العالم، فيُبدون إعجابهم بهذا الخير العميم، الذي هو أثر للفكر الإسلاميِّ الصحيح، بل ويعجبون من ذلك؛ لإنَّ الإسلام - للأسف - صار عندهم مقرونا بالإرهاب، والهمجية... وما ذلك إلاَّ من زور الإعلام الظالم عبر العالمَيْن الغربي والشرقي على السواء...

هكذا نجحت «زمان» و«جيهان» في صنع إعلام نظيف... أساسه قيم الإسلام، وشكله روح العصر، وهما بحقٍّ مفخرة للعالم كله، وللإسلام والمسلمين بالخصوص... والفرق شاسع بين من ينظِّر للإعلام الإسلامي، بلا دليل ولا ثمرة ولا نموذج، ومن انطلق من الأسس، وصنع المعجزات، بعيدا عن كثرة التنظير، والتعقيد، والتعليق...

مقالات فاتح القسطنطينية 06

«فام» لصناعة الإنسان

ليس من عادتي أن أخاطب في مقالاتي فئة معيَّنة، أو جهة بعينها، غيرانِّي هذه المرَّة أتوجَّه بالخطاب إلى مَن آمن - ابتداءً - بالتعليم بديلا عن الشعارات، وبالتربية أساسا لكلِّ الانتصارات؛ ليس فقط، لكنَّه ما إن مرَّت عليه لحظات من التعب والرهق، وذاق الكثير من المعيقات والمعرقلات، حتى اهتزَّ إيمانه، وضعف جانبُه، فكثر شانؤوه؛ وراح يفكِّر ويقدِّر، ويسأل ويعيد، ويترجَّانا لعلَّنا نغيِّر الطريق من جديد، فنتوجَّه وجهة البرلمان، ونتَّخذ لنا - كما للناس جميعا - مرشَّحين ومنتخَبين، بُغية امتلاك قسط من السلطة، والحصول على حظنا من الجُبنة!

فلأُسمِّ هذا الشخص الافتراضي - غير الحقيقيِّ - «المستعجِل»... ولأبدأ أولا بشكره، وبالتنويه بقدره؛ فهو صادق النية، صافي الطوية، يحبُّ الخير، ويعمل لنشر البرِّ، لا يبطن شرًّا، ولا يخفي ضرًّا... فمعدنه طيب، ومعتده طاهر... بورك له، وبورك فيه...

غير أنَّ صديقنا «المستعجِل» من جهة أخرى، يفتقد الفهم الشموليَّ العميق، والرؤية التحليلية النافذة، والمخطَّط الاستراتيجيَّ البعيد؛ ورؤيتُه للمستقبل قصيرة ضيِّقة، لعلَّه - لسبب أو لآخر - أصيب بعاهة أو آفة، أو لعلَّ عينيه لم تألفا الجهد والاجتهاد منذ الصغر، أو لعلَّ الضباب تكثَّف من حوله، والمعمِّيات تناثرت بين حاجبيه... لكنه، مع ذلك يبقى بريئا، لا له ولا عليه...

لمثل هذا «المستعجِل»، أو لمثل هؤلاء «المستعجِلين»، وقد أكون أنا واحدا منهم، أقول:

نعم، كان مشوار التربية والتعليم خيارا شاقًّا، لكنَّه لم يكن بإرادتنا، ذلك أنَّه يصدق فينا قول الجليل:

«وتَوَدُّون أنَّ غير ذات الشوكة تكون لكم، ويريد الله أن يحقَّ الحقَّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين» (الأنفال، 07)؛

فوالله ما أريحَ الادعاء المنمَّق، والكلام المزوَّق، والحملاتِ الظرفية، والتكتيكات الحرفية... وما أيسر أن نملأ الدنيا «صراخا» ونعمُر الكون «هواءً» - حتى لا أقول نُباحا -، ذلك أنَّ «سوق الكلام» رائج في عصرنا، و«كلام السوق» ثمين في مَصرنا...

لكنَّنا، وهنا أخصُّ كلَّ مدير، ومعلِّم، وولي، وتلميذ... ممن كان معنا - أو كنَّا معه - في البداية، فربطْنا العقودَ، وأوثقنا العهود، وكنَّا - وكنتم جميعا - يومَها، واثقين من صعوبة المسلك، ووعورة الممرِّ... ولا يزال الكثيرُ منكم مرابطا، رغم كلِّ الظروف؛ والبعضُ الآخر أفضُل حالا، يصنع بكلتا يديه مناسباتٍ للانتصار؛ وقسمٌ ثالث آمن وصدَّق، فهو مجاهد بكلِّ المعايير، مرابط بجميع المقاييس... لكن مع ذلك، دونَ هؤلاء وأولئك مَن شكَّ - أو يشكُّ - كلَّما لقِينا من أمرنا نصبا وعنتا... وكأنَّه كان ينتظر من الطريق أن تُفرش حريرا، ومن السماء أن تمطر إبريزا، ومن القدَر أن لا يبتليهم ولا يبتلينا ولو مرَّة...

لكنَّنا... والخطاب لجميع هؤلاء وأولئك، بعد سنين، اكتشفنا مَن نحن، وإلى أين نحن سائرون، ولماذا اخترنا الدرس عوضا عن الكلام، والمدرسة بديلا عن المهرجان... نحن، اكتشفنا ذاتنا من خلال مشاريع «كولن التربوية»، ومن بينها، وهو موضوع هذا المقال: مدارس فام (FEM) لصناعة الإنسان.

إنها مدارس تدعيمية للطلبة الذين هم على باب الجامعة، شُرع فيها منذ سنوات، وهي اليوم أفضل مأوى للطلبة الأتراك من كلِّ الفئات والجهات؛ وقد

بلغ عددها في استانبول وحدها - حسب تصريح مديرها - تسعون مدرسة، كلُّ مدرسة - وقد شاهدنا بعضًا منها - بمثابة جامعة صغيرة، بعضها يأوي الآلاف من الطلبة، يحضنهم، ويربيهم، ويعلِّمهم كيف يتعلَّمون، وكيف ينبغي أن يتعلَّموا، ولماذا يتعلَّمون، وممن يتعلَّمون، ومتى يتعلَّمون، وإلى متى يتعلَّمون...

إنَّ مدارس «فام» تبدأ بما ينبغي أن يُبدأ به، يبدأون بـ «اقرأ باسم ربك...»؛ لكن، ليس بأسلوب الجدل العقيم والادعاء المُنيم، وإنما بمنهج «وليتلطَّف»، وبقاعدة «بالحكمة والموعظة الحسنة»؛ ولذا قد تجد في المدرسة الكثيرَ ممن لا يستسيغ الذوقُ سيرتهم، ولا يقبل الدين هيئتهم، ثم لا يلبثون بعد أمد، وقد تلقَّوا العلم والخلق والأسوة الحسنة، أن يتحوَّلوا إلى حواريين عالِمين عامِلين، وإلى قيادات كونية صافية طاهرة نقية... يدعُون بلسان حالهم، معرِضين عن الدعوة - في هذه المرحلة - بلسان مقالهم!

والملفت للانتباه هو تلكم العلاقة الحميمية بين الأستاذ في «فام» وبين الطالب وأسرته، وللإخوة في هذا الفنِّ إبداعات، وهل الطالب سوى شجرة نبتت في أرض العائلة، بذرت ببذرها، وسُقيت بمائها... فالبيت - كما يقول الأستاذ فتح الله - هو المحضن الذي تصنع فيه منطلقات الحضارة، ذلك أنَّ «البيت أمَّة صغيرة، والأمَّة بيت كبير. والشخص الذي ينجح في إدارة بيت -كبيراً كان أم صغيراً- إدارةً صحيحة، ويرتفع بأفراد ذلك البيت إلى المستوى الإنساني اللائق، يستطيع ببذل جهد صغير، القيام بإدارة مؤسسات أكبر إدارة ناجحة»(الموازين، 147).

وأوَّل ما يكسب الأستاذُ من الطالب قلبَه لا عقله، عاطفتَه لا منطقه، ولذا تراه يحبِّب إليه الخير، ويعلِّمه أبسط أسرار الحياة، ويرفع من شأنه، ويكرم محيَّاه... ذلك أنَّ مَن اختار إهانة الطالب ليدفعه إلى العلم، ومن آثر الخشونة في جنب التلميذ، كيما يكسبه المعارف، مخطئ، مُسرف، مبذِّر، جاهل، بل وظالم أحيانا... ولقد سئل العلمُ يوما: «مَن هو قرينك؟»، فأجاب بلا

تردُّد: «الحبُّ والعشق؟»... فمن أحبَّ تعلَّم وعلَّم، ومن كره جهل وحمل الناس على الجهل... وهكذا القاعدة الصادقة المطلقة، التي لا تختلف أبدا!

◆◆◆◆◆◆◆

أعود إلى ذاتنا، وأقول:

إنَّ طريق الحضارة الوحيد، هو طريق الرسل أجمعين، وطريقُ الأقطاب الربانيين من بعدهم، إنه طريق التربية والتعليم، فإن نحن صبرنا - لا صبْر موسى مع الخضر، بل صبر الخضر لموسى، عليهما السلام - كانت الثمرة فجرا مشرقا نيرا مباركا، وإن نحن اتبعنا سبيل «المستعجِل» أو كنا نحن «المستعجلين»، فإنَّ السنين ستأكل السنين، والزمان سيلتهم الزمان، ثم لا نسمع جعجعة ولا نرى طحينا، أو لعلَّنا أحيانا نسمع ولا نرى؛ وأمَّا الطحين فسيكون بيد غيرنا، مِن صنع عدونا، ويطعم شانئينا، يطبخونه كيفما يريدون لأجيالنا، ويقدِّمونه في الصورة التي يودُّون... ثم يفعلون فينا، وفي أبنائنا، وفي أوطاننا... الأفاعيل، ولا نملك حينها طاقة، ولا إرادة، ولا حتى فكرة، لكيفية الخروج من المأزق، فنعيش طول العمر داخله، لا ككهف الفتية الذي نُشِر رحمةً ومرفقًا، لكن ككهف «بيكون» الذي أوى الأوهامَ والمغالطاتِ والخرافاتِ... مما سمي أوهام المسرح، وأوهام القبيلة، وأوهام الكهف، وأوهام السوق...

ولكل وهم من تلكم الأوهام - اليومَ في واقعنا - أمثلة ونماذج، ليس المقامُ مقام بسْطها، ولكن يكفي أن نجنِّب أمَّتنا ويلاتها، وتبعاتها، وشرورها... بالاعتناء بالتربية والتعليم، والصبر فيها، والمصابرة عليها...

وبالمناسبة أحيي كلَّ مخلص غيور، وكلَّ عامل صبور، وكلَّ شهم جسور... وأدعو الله أن يرزقه يومَ لقائه جوارَ المصطفى عليه السلام، وسكنى الحور... وأكبر من ذلك كله وأغلى : «ورضوان من الله أكبر»... وذلك هو الفوز المبين.

مقالات فاتح القسطنطينية 07

«جوشكن»: مدارس من العالَم الملائكي!

منذ سنوات وأنا أسافر بين البلاد مثل هائم سائح يبحث عن «ليلاه»، فمِن ماليزيا إلى إيران، ومِن مصر إلى السودان، ومِن سورية إلى لبنان، ومِن كندا إلى عمَّان... وما بين رحلة ورحلة كانت تركيا العثمانية تلوِّح إليَّ بوجه فاتر، وعينين مغرورقتين، كأنها تقول: «لا يغرنَّك الحسنُ إذا لم يكن أصيلا، ولا يفتِنك المظهر ما لم تختبر خبايا القلوب وكوامن النفوس، ولا يسبينَّك الوجه حتى وإن خِلتَه أسيلا...!»

كان أغلب من يسافر إلى تركيا يكتفي بالاستمتاع بالمعالم التراثية، ويحبس خطواته ما بين «أياصوفيا» و«السلطان أحمد»، وبين «البوسفور» و«مارمارا»، ثم يشدُّ اهتمامه إلى بعض المنشآت الحضارية المعاصرة، ويعود إلى بلاده معجبا، متوجِّسا، حائرا... وقد تجمَّعت عنده المتناقضات جميعُها...

كنتُ كذلك، وبقيت إلى أمدٍ على تلك الحال، إلى أن شاء الله تعالى أن أكتشف، رفقة الإخوة الكرام في «معهد المناهج»، مصدرا جديداً، ونبعاً صافيًا، من خلال الإخوة الذين فتحوا أمامنا آفاقا واسعة رحبة لفهم تركيا على حقيقتها، ولإدراك الأمور بأصولها...

فعلمنا حينها أنَّ تركيا هي مستقبلُ الإسلام، وهي وعد الله في أرض الله

«ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم» (الروم، 04)

ولا يشكُّ مؤمن أنَّ سبيل الله تعالى لا يخلو من زعماء وقادةً، وجنودا وجيوشًا... سيتحقَّق النصرُ على يدهم؛ وأنَّ أيَّ اشتغال بالترَّهات، وأيَّ انشغال بالسخافات، هو تضييع لهذه الفرصة، ولا تنفع يومها الاعتبارات الانتمائية الضيقة الخانقة، وإنما هو الإسلام «رحمة للعالمين»، والدين الذي أنزل «للناس كافَّة»... فمن وسَّع فكره يسَّر الله له سبل التمكين، ومن ضيَّق أفقه أبعده الله عن أسباب النصر...

ولقد زُرنا العديد من الإنجازات الحضارية لتركيا الحديثة المباركة،

بقيادة إمامها الحكيم «محمد فتح الله كولن»، الذي نوَّر الله بصيرته، وبعثه مجدِّدا لأمر الأمَّة والدين، ولقد أجمع على ذلك القاصي والداني، من المسلمين ومِن غير المسلمين، ولا يضرُّه - كما لا يضرُّ - «الخدمةَ» جهل بعض قصار النظر، بسيطي الفكر، ممن تبدأ الدنيا في ذواتهم المنغلقة، وتنتهي عند أطراف أنوفهم المجذوعة...

وهذه المرَّة شاء الله تعالى أن تحملنا الأقدار إلى مدارس «جوشكن» الراقية، رفقة إخوة لنا من شباب «الخدمة» الأطهار، ورفقة باحثين من المغرب الأقصى، فقد كان لنا موعد مسبق، مع المدير العام للمدارس... فكنا على الموعد بحمد الله وتوفيقه...

في مدارس «جوشكن»، الحلم الذي حلمنا به منذ عقود:

- بنايةٌ أشبه ما تكون ببنك دوليٍّ، أو وزارة للطاقة في أغنى الدول...

- طاقم استقبال ينقضُّ على قلبك فيكسِبه، قبل أن تلتقط آذانك بعض كلماته التي قد لا تفهم منها الكثير...

- نظافة، ونظام، وإبداع، وجمال، وأصالة... ثم فعالية، وحركية، ونشاط، وجدٌّ، ومثابرة...

قد تنتهي كلمات القاموس ولا تستوعب جميعَ ما تشاهده العين من إيجابيات، وقد يخرس اللسان بعد دقائق، ذلك أنَّ العين تُسكته، وتحمله على التواضع، وتريه مقامه الحقيقيَّ... وقد يعجز البنان، وينكسر اليراع، وهما يحاولان لملمة الألفاظ، وبناء فقرة أو نصٍّ يوصل للقارئ حقيقة ما شاهد...

جلسنا في قاعة الاستقبال، دخل السيد المدير «محمد كيشيل أوغلو»، وجلس في موقعه، ثم سلَّم لنا المضيفون الشايَ وما يحوم حوله، وبدأ العرض على الشاشة بـ«الباوربانت»، بصورة سريعة واضحة دقيقة... وأوَّل ما بهرَنا دلالة «رمز المدرسة»، فهو وكأنه أربعة أرباع من زهرة، كلُّ ربع بلونٍ، قال السيد المدير: «أمَّا الأرباع الثلاثة الأولى، فهي التحضيريات والابتدائيات والكوليجات (متوسطة وثانوية بنظامنا)؛ وأمَّا الرابع فهو مخطَّط الجامعة، لمَّا ننجزه بعد، وهو بإذن الله في برنامجنا».

ولمجموعة «جوشكن» أربع ابتدائيات، وثانوية للإناث وأخرى للذكور،

ومجموع التلاميذ هو 3600 طالب، يؤطِّرهم 370 مدرِّسا، أي ما نسبته مدرِّس لعشرة تلاميذ؛ أمَّا عدد العمَّال الكلي فهو 750 عاملا، من الإدارة إلى الحراسة... وما بين ذلك.

أمَّا المطبخ، والمقصَف المدرسي، وأعمالُ النظافة... فكلُّها بيَد شركات خاصَّة، متخصِّصة في هذه الأعمال، تعاقدت المدرسة معها، وهي تتمُّ مهمَّتها باحترافية لا نظير لها... وكذا، النقل، وما يترتب عنه. «كل ذلك يمكِّننا - يقول السيد المدير - مِن التفرُّغ للعملية التربوية، خالصةً دون هموم أخرى هامشية!».

وهدفُ المدرسة هو: «سعادة الزبون، لا رضاه فقط»؛ وفي هذا الهدف تظهر سمة الإخلاص لله تعالى، ذلك أنَّ الزبون قد يَرضى، ولكنه لا يعرف «مصلحته» أو «ما يصلح به»؛ فهذا ليس هو الهدف؛ وإنما الهدف أن يكون «سعيدا هو وكلُّ العائلة»، بكلِّ مقاييس السعادة الكمية والكيفية...

ويراهن فريق «جوشكن» على معايير انتقاء الإدارة والمدرِّسين، فهي:

- معايير أكاديمية وعلمية أولا،
- ومعايير خلقية وسلوكية ثانيا؛

ولا يُستغنى عن معيارٍ لحسابِ آخر، بل كلُّ معيار هو الأهمُّ وهو أساس نجاح المشروع؛ فجدلية الكيف والكمِّ، والمادة والروح، والدنيا والآخرة... هنا، في تركيا الحضارة، وفي «البراديم كولن» بالخصوص، ليست ثنائية إقصائيةً جدلية - كما في الكثير من البلاد الأخرى -... إذ المطلوب هو: الكفاءة والفعالية، معًا، بكلِّ المقاييس.

«وليس لدى الطاقم التربوي عندنا - يقول الأستاذ محمد - مدلولُ الدوام الكامل، أو العدد الساعي مقابل الأجرة... ذلك أنَّ كلَّ واحد مطالَب بتقديم أضعاف ما يقدِّمه قرينه في أيِّ مدرسة أخرى، من الصبر، والوقت، والحرص... وأغلبهم يعمل بحرَ اليوم، حتى الليل، ويعمل خلال العطلة... لا يحاسِب، ولا يطالِب، بل هو مسرور سعيد؛ لأنه - باختصار - في «الخدمة»، يؤدِّي ما أمره الله تعالى به، وما هو نافع للأمَّة والوطن والإنسانية...».

ولتكوين الإطار في «جوشكن» - وفي غيرها من مدارس الخدمة، مثل

«فاتح»، و«برج»، و«فام»، و«أنافن»... - قصّة أخرى، ومكانة لا تقاوَم... فهو تكوين صارمٌ، متواصل، جادٌّ... مؤسَّس على فكرة «الزُّمَر»، فكل تخصص له زمرته: زمرة اللغة، وزمرة الرياضيات، وزمرة الأخلاق، وزمرة الفنِّ... الخ؛ ولكل زمرة - خارج الدوام - لقاءات تكوين أسبوعية، وبينهم وبين زمَر أخرى لقاءات تكوين شهرية، وبين زمر المقاطعة أيام عمل مغلقة مرَّة كل سنة...

يقول السيد المدير: «نحن لا نخاف لجان التفتيش، والمراقبة من قِبل الدولة، بل بالعكس، نرحِّب بها، وهي جزء من عملية تطوير المنظومة العلمية للمؤسَّسة وللوطن؛ وقد استعار مثالا جيدا من التراث التركي للتعبير عن هذا - مع فارق - وهو قولهم: «وجود الصقر، ينمِّي مهارات العصفور!».

قلت في نفسي: «لكنَّ بعض الصقور، في أماكن أخرى، ليس لديها معيار أخلاقيٌّ، وهي ظالمة، جائرة... أمَّا هنا، فالصقور تخضع لقانون واضح... والحقُّ، أنَّنا نحن - كذلك - في الجزائر، وجدنا لجان التفتيش في وزارة التربية، متفهِّمة، واضحة... في أغلب الأحيان... ولله الحمد والمنَّة!».

أمَّا عن المقرَّرات والمناهج، فهي من تخصُّص مركز محترف، تابع لمجموع مدارس «الخدمة»، ينتج أجود الكتب، وأفضل البرامج، وهي توزَّع حتى على مدارس الدولة، وعلى مدارس أخرى في الوطن... فالتخصُّص، والتفرُّغ، والعمل الجماعي، والاحترافية... كلُّها معايير كنا - ولا نزال ندافع عنها - هي هنا قد تحقَّقت على أرض الواقع، وكأننا في عالم ملائكي من نوع جديد!

وعن سؤال حول الهدف من التلميذ، أو: «كيف ترونه مستقبلا، وقد تخرَّج في مدارسكم؟»

أجاب السيد محمد: تلميذ «جوشكن» ينتظر منه أن يكون في المستقبل إن شاء الله:

- واثقا من نفسه.
- منسجما مع بيئته.
- متبنٍّ للقيم الإيجابية.

- مؤمنا بالقيم الإنسانية العامّة.
- له رؤية شمولية.
- متقنا للغته الأم، وله لغة أجنبية قد تمكّن فيها.
- يكسب معرفة تكونولوجية عالية.
- بارزا في رياضة واحدة على الأقل.
- له قدرة فنية ومهارة وموهبة في إحدى الفنون (للمدرسة خمس وثلاثون نوعا من النوادي الفنية والرياضية، فيها تنمّى مهارات التلاميذ).
- متفوقا في التخصص الذي يختاره هو.
- وأولى من كلّ ذلك: صاحبَ أخلاقية سامية (إيمانية، ربانية، وطنية، مدنية...)

ونحن، دوما نسأل أنفسنا - يواصل السيد المدير - عن كلّ تلميذ يدخل ثم يتخرّج في «جوشكن» سؤالين أساسيين:

❖ترى هل أنقذْنا دنيا هذا التلميذ؟

❖ترى هل أنقذنا آخرته؟»

كما أنّ في كلّ فصل من فصول السنة هدف عامٌّ لجميع المدرسة، وهدفٌ خاصٌّ لكلّ تلميذ، يجب أن يتمّ تحقيقه؛ ونتحاسب على أساسه... ونحن نعمل بمنهج «الذكاءات المتعدّدة» في مسارنا العام.

وعن سؤال حول التمويل، أجاب السيد: «الحمد لله، فرجال الأعمال، والمنفقون، ذوو سخاء منقطع، وحرص على المشروع، قد يفوق حرص الطاقم التربوي، ولذا فهم سرٌّ من أسرار نجاحنا»

والدليل واضح، وهو «المجسَّم» الذي وُضع في المدخل، لمدرسةٍ تحت الإنجاز، بعشرات الهكتارات، وما يبنى منها هو خمس وثلاثون ألف متر مربع... وهي أشبه بجامعة من جامعات أكبر الدول العالمية، «هذه سنشرع فيها السنة المقبلة، ونبدأ في بناء مدرسة أخرى أكبر منها، مباشرة بعد إتمام هذه...»

◆◆◆◆◆◆◆

هنا، أتوقف عن الكتابة، وهنا أعلن أنَّ فرائصي ترتعد، وأنَّ أناملي لا تطاوعني، وأنَّ القلب ليتفطَّر، وأنَّ العينَ لتدمع... وأنا أدعو الله بدعاء، أسميه هذه المرَّة، دعاء «جوشكن» على شاكلة دعاء «الجوشن»، مع اختلاف في الصيغة والمقصد، أقول فيه:

«اللهمَّ ربَّ السماوات السبع وما أظللن، وربَّ الأرضين السبع وما أقللن، وربَّ الشياطين وما أضللن... أسألك بكلِّ نسمة، وكلِّ ذرَّة، وكلِّ قطرة، وكلِّ غائبة في السماوات أو في الأرض، وبكلِّ ما نعلم وما لا نعلم... أن تيسِّر لنا أسباب التمكين، وتوفِّقنا لتربية الجيل على الدين المبين، وعلى الخلق المكين، وعلى القوة والنصرة والعزَّة، وكلِّ ما يرضيك، يا مُعين...

اللهمَّ إنَّا نسألك في وطننا، وفي سائر بلاد المسلمين، مدارسَ ربانية، قرآنية، محمَّدية، كونية، حضارية، تُعيد للأمَّة مهابتها، وللدِّين مكانته، وتكون سببا لظهورنا على الكفَّار والمشركين، وعلى المنافقين والمتخاذلين... آمين.

اللهمَّ وفِّقنا، ووفِّق مدارسنا، ومدرِّسينا، وعلمائنا، ومُحسنينا، وتجَّارنا، وطلبتنا، وولاة أمورنا... وكلِّ مَن يغار على دينك، ويرجو رضوانك... اللهمَّ وفِّق الجميعَ إلى إنشاء مدارس على شاكلة «جوشكن» و«فاتح» و«برج»...؛ وابعث من مَدارسنا العلميَّة - ومن غيرها - ما تقرُّ به أعيننا، ووفِّق القائمين عليها، والمجاهدين في سبيلها، والمرابطين في ثغورها، إلى العلوِّ بها مقامات عليَّة، وعوالمَ ملائكيَّة...

اللهمَّ ازِل الشحناء من قلوبنا، والأنانية من افئدتنا، والاستعجال من عقولنا... يا أرحم الراحمين...اللهمَّ إنك تعلم ولا نعلم، رضينا ربَّنا بما قضيت لنا، إنك علاَّم الغيوب... والحمد لله ربِّ العالمين».

مقالات فاتح القسطنطينية 08

طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!

❖ طبَّاخة العجين:

هي امرأة تركية، ذات مسحة من الوقار الممزوج بالرهبة، جمالها جمال العفَّة والحجاب والحياء، قامتُها مربوعة غائرة في لحافها، ووجهها مدوَّر غارق في براءته، كل لحظٍ من لِحاظها الآسِر يحكي أسطورة من أساطير هذا البلد العريق... يهواها القلب، لا هوى الغانيات الفاتنات، لكن هوى الطاهرات العفيفات... كأنها خُلقت من طينة «الفردوس»، وعاشت في عالم المثل سنوات!

عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنَّانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة... صِفاتها الخلقية لا عدَّ لها ولا حَصر، إنها سليلة الأصالة العثمانية المهيبة، وبنتُ أرض الأناضول المُهابة، هي منذ الميلاد في موقع متقدِّم من مواقع الحضارة والريادة، حتى وإن جفاها القدَر ببعض الضرِّ، ورماها الزمان ببعض المحن...

أنا لا أصف فتاة لهائم كيْما يخطُبها، ولا أعدُّ «بروفاةٍ» لممثِّلة قد تغري بعض خِفاف العقول، ولا أرسم لوحة لأميرة من العائلات الثرية الأرستقراطية... وإنما أنقل صفحة من عمق المجتمع التركي، وبالضبط من «حي شعبيٍّ قريب من المطار»، فوق جسر «الميتروباس»، بجوار مسجد صغير أنيق، حيث المارَّة - وبخاصة في الليل - يُعدُّون بالآلاف، وحيث الحياة تذِبُّ لحظة خمودها في أماكن أخرى من العالم...

والتاريخ، في اعتقادي، وعند بعض المحقِّقين، ليس هو تاريخ الملوك والحروب، وإنما هو تاريخ الإنسان بأحلامه وآماله وآلامه، تاريخُ بني البشر في علاقتهم ببعضهم البعض، وبالحياة، وبالوظيف، وبالرزق، وبالسياسة...الخ.

سألتها بلغة قد لا تفهمها، فأجابتني بلغة لم أفهم منها شيئا، لكنَّ الرسالة انتقلت بيننا مائة في المائة، بِلغة الإشارات والتقاسيم والإيماءات...

قلت: من أنت، وما اسمك؟

قالت: هِتون؟

قلت: اسمك جميل، ما مَعناه؟

فأشارت إلى السماء: السحابة! (وعلمتُ بعد ذلك، أنَّ معناه السحابة المثقلة بالمطر)

قلت: ماذا تعملين هنا؟ وقد لاحظتُ فرنا، وعجينا، ويدَيْن تعملان بخفَّة ورشاقة، رغم أنها في حوار معي، ورغم عمُرُها الكبير...

أجابت: «بورَك» (وهو أشبح بالمحاجَبْ عندنا)

قلت: كم تبيعين في اليوم، لا بل في الليلة؟

قالت: أكثر من مائة، غالبا...

سألت: كم ثمن الواحد؟

قالت: ليرة تركية ونصف...

فطلبتُ بضع قطع من «البورك» اللذيذ، وشكرتُها، فودَّعتها... ذلك أني لاحظتُ الزبائن يتوافدون، وأنا على رأي المثل «ويل للشجيِّ من الخليِّ»، فخِفت أن ينالني هذا الثبور والويل...

وفي الطريق، وكان بجواري ولدي الربيع، سألته: هل تعرف ماذا يعني مائة قطعة بِليرةٍ ونصف الليرة، في ساعتين، أو ثلاث ساعات؟

قال: طبعا، مائة وخمسون ليرة.

قلت: وهل تعرف لو حوَّلناه إلى الدينار الجزائري كم يكون؟

تردَّد، وسكت!

قلت: هو مبلغ عشرة آلاف وخمسمائة دينار، أي مليون سنتيم، وخمسون ألف سنتيم!

قال: ماذا تعني بهذه المقارنة؟

قلت: في فمي ماء...

ثم صمتُّ طويلا... وأنا أردِّد بنبرة خافتة «طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!... طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!»

❖❖❖❖❖❖❖

❖ طبّاخ البنين [7]:

منذ بضعة أعوام، كنتُ على متن حافلة تقلّني من العاصمة إلى وهران، وإذا بي أجاور رجلا، ساقني القدر إلى جنبه، فتأمّلت فيه كثيرا، ولعلّه هو كذلك تأمّل فيّ كثيرا... ومِن طبيعة الناس في هذه السنوات العجاف، أنهم لا يتكلّمون مع أحد إلاّ إذا استأنسوا منه خيرا... فالفتنة قد أحالت الأخضر غُثاء أحوى، وزلزلت العلاقات بين بني البشر، ولذلك قال عنها رسول الرحمة عليه السلام: «الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها...».

بعد حين من الزمن، توجّهتُ إليه، وأعدت السلام ثانية: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أجابني: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

سألته: ما اسمك؟ ومن أين أنت؟

قال: عبد القادر، أنا من مدينة تيارت، معلّم متقاعد!

فعرّفت نفسي كذلك، وزيادة، ثم سألته: كيف تقيّم سنوات التدريس والتعليم التي قضيتها من عمرك؟

قال: أمّا ضميري، فمرتاح، ومطمئنٌّ، والحمد لله... وأمّا... وأمّا...

سكتَ هنيهة، وواصل: وأمّا ما سوى ذلك، فنسأل الله أن يلهمنا الصبر!

تظاهرتُ بعدم فهم ما يقصد، فقلت: ماذا تعني من قولك «ما سوى ذلك؟»

قال: الكرامة... الكرامة... الكرامة!... ثم تأتي أمور أخرى، مثل الاستغناء عن الناس، وكفالة العائلة، والعيش مثل باقي البشر...

لم أتمالك، واستذكرتُ دعاءً مأثورا، فقرأته بجهر: «اللهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك طرفة عين... يا أرحم الراحمين»

ثم سألته: هلاّ شرحت ما تقول، وبيّنت مغزاه؟

7 ملاحظة لا بدّ منها: مصطلح «طبّاخ البنين»، لا يُقصد منه الانتقاص من الأستاذ والمعلم، بل هو من قبيل المشاكلة فقط، ولأنّ طبخ البنين أصعبُ وأخطرُ وأعظم أمرًا من كلّ طبخ آخر.. من مثل طبخ القوانين التي تضيّق على الأستاذ خناقه، وتعطي لصاحب «حرز السياسة» مكانة!.

أخذ نفَسا عميقا، ثم ألقاه متأوها، فقال: أخي، أو بنيَّ - فأنت في عمر ولدي - إنِّي قد اخترت مهنة التعليم حبًّا في هذا الوطن، وطمعا في مستقبل زاهر لهذه الأمَّة، واجتهدتُ ما كتب الله لي أن أجتهد، فصبرت على الحرِّ والقرِّ، وبِتُّ ليالي على الجوع والطوى... فمرَّت السنون تطويها السنون، ثم كانت المدرسة عندنا آخر همٍّ من هموم أغلب الساسة وأصحاب القرار، بل كانت عدوَّهم الأوَّل، وكان المثقفون والمعلِّمون والمتعلِّمون هم «شرُّ الناس، والعالة على المجتمع، وأراذل القوم!»... فحوربوا، ولوحقوا، وشرِّدوا، وفقِّروا، وأحوِجوا... وها أنت ترى أمامك أحد هؤلاء المعلِّمين، فهو ليس أشقاهم، ولكنه أحد منهم!

توجَّست شرًّا من حاله، وسألته: أستاذي، ما بك؟ وهل ألمَّ بك ضرٌّ؟

قال: نعم، فابنتي البالغةُ من العمر سنَّ البلوغ، ابتُليت بمرض عضال، كلَّفني الكثير، وأنا لا أملك حقَّ الدواء، فما بالك بالعمليات الجراحية، أو بالسفر إلى الخارج للمداواة؟!

قلت: فكيف تتصرَّف؟

قال: محتاجا للناس... إنهم - سامحهم الله - أحوجونا، وأشبعوا «لاعبين»، و«مغنين»، و«شبابا محتالا»...

فسألته بجرأة: وكم كنت تتقاضى من الأجرة؟

قال: حوالي ثلاثين ألف... دينار، لا تقضي لي حاجة... وأمَّا الآن، فالتقاعد أنقَصَ من هذا المبلغ كثيرا... وهكذا يا بنيَّ مَن كلِّف بتربية البنين، وبإعداد الأجيال؟!

ثم أردف مستدركا ومصححا: نحن لا نبتغي الغنى، فقد آثرنا الحياة البسيطة، لكنَّنا كذلك لا نقبل الذل، ولا الحاجة، ولا قلَّة ذات اليد... مما يسلبنا الكرامة والعزة والحياة العفيفة.

❖ سُرعان من انتهت الرحلة، وودَّعت الرجل الشريف الأبيَّ، داعيا الله أن لا يبخسه أجره، وأن يفرِّج عنه وعن أمثاله... وعن أمَّتنا ووطننا وأهلنا...

❖❖❖❖❖❖❖❖

❖ طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين:

عودٌ على بدءٍ، إلى تركيا، وإلى الأخت «هيتون»... في تلكم اللحظة التي كنت أحاور ابني، كانت صورة «الأستاذ عبد القادر» تلاحِق عقلي، وتجرح مشاعري... ففكَّرت مليًّا، وإذا بي أنادي: «طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!».

تذكَّرت أنَّ تلكم المرأة، في تلكم الحالة، وهذا الرجل، في أولئكم الموقف... تحظى بأجرة أعلى منه بعشر مرات كاملة!، ولقد يقاطعني أحد ويقول: كذلك الحياةُ أغلى، ولكني أستدرك، وأقول: بكَم مرَّة؟ ثلاث...؟ أربع مرات؟ ها نحن في وضع المرأة الطبَّاخة للعجين أحسنُ حالا من الرجل الطبَّاخ للبنين بخمس مرات أوْ أربع أو ثلاث... لا يهمُّ...

وقلت لابني الربيع: تصوَّر أنَّ معلِّمك يتبرَّع لك بثلثي قيمة دراستك، وأنَّ أهلك - في المدرسة الخاصة - يدفعون الثلث، والحكومة هي الدافعة للثلث في المدارس العمومية... أفلا يستحق هذا المجاهدُ منَّا وقفة، ومراجعة، وإعادة اعتبار؟!

وتذكَّرت يومٍ بدأنا مشاريع المدارس العلمية، وهي لما تبلغ بعد المبتغى، قلنا حينها: «إنَّ المعلِّم الكريم هو الذي يمنح الكرامة للتلميذ!»، وحاولنا ولا نزال نحاول، وقد حقَّقنا شيئا، وبقيت أشياء... ومع ذلك فالأجرة، والمال، ليس هو كلُّ شيء... فثمة معان أكبرُ وأعظم... ينبغي أن ننظر فيها وإليها، ونحن نقارن بين «طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين!»؛ وهي معاني الحضارة، والأخلاق... وغيرها...

ولقد وصفتُ - في مقالي هذا - تلكم المرأة بأنها: «عمَّالة، منظَّمة، منضبطة، فنانة، واضحة، دقيقة، سريعة، صبورة، محتسبة...» فهل طبَّاخ البنين عندنا، هو دائما كذلك؟!

طبعا، أنا أستثني الكثير ممن هو كذلك وأعظمُ من ذلك، ولكنني مع ذلك أسجِّل أنَّ الكثير هم - للأسف - خلاف ذلك!

فكيف إذنْ أقِيم موازنة بين «طبَّاخة العجين... وطبَّاخ البنين»؟ ومن أيِّ وجهة؟ وعلى أيِّ مقياس؟

أترك الباقي للقارئ، وللمعلِّم، وللتلميذ، وللوليِّ... ولكلِّ غيور، داعيا الله أن يسدِّد مقولتنا ورأينا، ويهدينا سبل السلام والرشد والرشاد..

الملاحق

الملحق رقم 01

قائمة الكتب التي اقتنيناها من المعرض الدولي للكتاب، طهران

1. الاجتهاد والتقليد، السيد رضا الصدر
2. الأخلاق الولائية، الإمام الخامنئي
3. إدارة العمل الإسلامي، السيد عباس نور الدين
4. الأقليات المسلمة في قارة إفريقيا، أمانة مؤتمر التقريب
5. الإمام البخاري، دراسة في حياته واتجاهه الفكري، حسين الهرساوي
6. أمان الأمة من الضلال والاختلاف، آية الله لطف الله الصافي
7. بداية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي
8. تذليل العقبات في طريق التقريب، خالد زهري
9. التعددية المذهبية في الإسلام، سيد جلال الدين ميراقايي
10. تواتر القرآن، محمد بن الحسن العاملي
11. التوحيد (مجلة عدد 117)، مؤسسة الفكر الإسلامي
12. جهاد النفس، قاسم الهاشمي
13. دروس في علم الأصول، آية الله محمد باقر الصدر
14. دغدغه آزادي (بالفارسية)، أبو القاسم الشابي
15. رسالة المرأة، دار المحجة البيضاء
16. سادة القافلة، مركز باء للدراسات
17. سفر إلى الملكوت، السيد عباس نور الدين
18. الشيعة في الإسلام، السيد محمد حسين الطباطبائي
19. الشيعة هم أهل السنة، د. محمد التيجاني السماوي
20. طريقة إلى دراسة العلوم الإسلامية، السيد عباس نور الدين .

21. طلايه دار (بالفارسية)، جبران خليل جبران
22. عمروسان مرغزار (بالفارسية)، جبران خليل جبران
23. غيقاظ العلماء وتنبيه الأمراء، أحمد عبد الله الكوزه كناني
24. الكلمات الطريفة، محمد بن مرتضى الكاشاني
25. كيف تكون قائدا ناجحا، مركز بقية الله للدراسات
26. مبادئ العمل الثقافي، السيد عباس نور الدين
27. المجمع العالمي للتقريب: أهدافه، ومنهجه، ومنجزاته، المجمع
28. المراقبات: أعمال السنة، الميرزا جواد آغا
29. مسلمو العالم والغرب، سمير سليمان
30. المسلمون في الأقطار غير الإسلامية، أمانة مؤتمر التقريب
31. مع الخطيب في خطوطه العريضة، آية الله لطف الله الصافي
32. مقتل الحسين، د. محمد التيجاني السماوي
33. المنطق، محمد رضا المظفر
34. المواعظ الحسنة، الإمام الخامنئي
35. النظام القرآني، مقدمة في المنهج اللفظي، عالم سبيط النيلي
36. نظرة إلى حياة السيدة المعصومة، غلا مرضا حيدري ابهري
37. نهاية الحكمة، السيد محمد حسين الطباطبائي
38. نهج الإمام في بيان القائد، الإمام الخميني
39. وصايا الرسول والأيمة، سيد هشام محلاتي
40. Muhamed in the mirror of Islam، Tabataba'i

الملحق رقم 02

خطبة عيد الفطر المبارك، بمونتريال [1]

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله تسليما كثيرا.

أيها الإخوة والأخوات: المصلُّون، القائمون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر...

سلام عليكم، ما لهجت الألسن بعُرف الذكر، وسلام عليكم ما خفَقت القلوب إمعانا في الشكر، وسلام عليكم ما اجتهدت العقول في التمحيص والفكر...

سلام عليكم ما حييتم، وسلام عليكم إذا متم، وسلام عليكم يوم تلقون ربَّكم وهو عنكم راضٍ، وأنتم يومئذ وجوه ناضراتٌ إلى ربها ناظرات...

تنعمون بجِنان الخلد، لا يَمَسُّكم فيها نصب ولا لغوب... ويصدق فيكم، بإذن المنعم المنان، وعدُ الله تعالى في قوله: «والذي جاء بالصدق وصدَّق به، أولئك هم المتَّقون، لهم ما يشاؤون عند ربِّهم، ذلك جزاء المحسنين». «ومن يأته مومنا قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العُلى، جنَّاتُ عدن تجري من تحتها الانهار، خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكَّى»؛ «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرَّة أعين، جزاء بما كانوا يعملون»...

بخ بخ أيها المؤمنون المزكُّون، العاملون، المحسنون...

لئن رمى الصحابي الجليل عميرُ بن الحُمام تمراته، وقالها شوقا إلى الجِنان؛ ولئن سمعها رسول الرحمن، فقال له دون توان: «فإنَّك من أهلها يا ابن الحمام»؛ ولئن هلَّل عميرٌ وبشَّر وقال: «لئن أنا حييتُ حتى آكل تمراتي هذه

1 مونتريال – كندا، الأحد، 1 شوال 1430هـ، / 20 سبتمبر 2009م.

إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل الكفار حتى قُتل يومَ بدر»...

لئن كان ذلك كذلك، فإنَّ ربَّ الجنة، وربَّ محمَّد، وربَّ عمير، وربَّ بدر، وربَّ الحياة، وربَّك، وربِّي... حيٌّ، قادر على أن يهبنا الفردوس الأعلى، ويُنزلنا مقام المقربين في أعلى عليين... آمين

لكن، أخي المؤمن، أختي المؤمنة: بماذا ننال هذه الدرجات؟ وكيف نستحقُّها؟ فهل هي كلأ مباح لكل طالبٍ مُريد؟ أم هي هبة لا يُعطاها إلاَّ من ألقى السمع وهو شهيد؟

لا شكَّ أنَّ دون بلوغها اختبار، بل اختباراتٌ عسيرة؛ ودونها خرق القتاد، والجِدُّ في المسير؛ لا يسمُق مراتبها إلاَّ الكيِّسون، الذين دانوا نفوسهم، وعملوا لما بعد الموت.

أمَّا الغافلون والمتكاسلون، والظالمون والمتكبِّرون؛ والغشَّاشون والمرابون، والمغتابون والنمَّامون، والتاركون لصلاتهم، والعاقون لوالديهم، والمطلِقون لعيونهم تنهش من الحرام، والسادرون في غيِّهم وهم يفرِّقون بين الأنام، والمحبُّون للفسَّاق المبغضون لأولياء الرحمن... أمَّا هؤلاء جميعا، وأعوذ بالله أن نكون منهم، فإنهم لا يَريحون ريح الجنة إن ماتوا ولم يتوبوا، ولا يدخلونها حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط...

فإن كنت أخي ممن تزكَّى فاستبشِر، وإن كنتِ أختي ممن وفَّى فشمِّري على ساعد الجدِّ، واهجرا الملذات إلاَّ ما حلَّ، وطلِّقا الدنيا إلاَّ ما طاب وطهُر.

❖❖❖❖❖❖❖

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وصلى الله على سيدنا محمد وآله تسليما كثيرا.

كبِّروا - أحبائي - فإنَّ في التكبير إرغاما للعِدى، وإنَّ نبيَّكم سنَّ لكم التكبير في ليلة العيد، والتكبيرَ عند الخروج إلى صلاة العيد، والتكبيرَ أثناءها، والتكبيرَ بعدها.

ولقد كان عليه أزكى السلام يخرج في العيدين مع الفضل بن العباس، وعبد الله بن عباس، وجعفرٍ، وحسنٍ والحسين، وأسامة بن زيد، وزيد بن حارثة، وأيمنِ بن أم أيمن، رافعا صوته بالتهليل والتكبير، ويأخذ طريق الحدَّادين حتى يأتي المصلَّى... ثم إنَّه ليأمر بإخراج العواتق والعرائس، والحيَّض وذوات الخدور، لشهود العيد، وللإكثار من التكبير في يوم العيد.

أيُها الموفُّون، كبِّروا الله على ما هداكم، ولْتقتدُوا بابن عمر، في خروجه مع فتيةٍ بمنًى، حتى إنهم ليكبِّرون فيسمعهم أهلُ المسجد فيكبِّرون، ويكبِّر أهل الأسواق حتى ترتجَّ منًى تكبيرا...

أيها المتَّقون، كبِّروا، فإنَّ التكبير شعارُ أمتنا، ودليلُ انتمائنا... أما وإنكم لتكبِّرون إذا أذَّنتم وأقمتم، وتكبِّرون قبْلَ كلِّ صلاة وعند كلِّ صلاة، وتكبِّرون إذا فديتم وضحَّيتم، وتكبِّرون إذا لقيتم عدوَّكم في ساحات الوغى وجاهدتم.

ألا فلتعلموا - غير معلَّمين - أنَّ من الناس من يُزعجه التكبير... وإنَّ منهم لمن إذا قلتَ: الله أكبر، «جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوا ثيابهم، وأصرُّوا، واستكبروا استكبارا».

ألا فلنكبِّر جميعا، إرغاما لكلِّ للعدى، داعين الله أن يهدي من كان أهلا للهداية، وأن يكفينا شرَّ من لا أمل في هدايته....

❖ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر

الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله تسليما كثيرا...

أيها المسلمون في ربوع بلاد الإسلام، ويا أيها المسلمون في ربوع الغرب، وفي كندا ومونتريال بالخصوص:

❖سافرتم من بلدكم ميزاب، وجئتم هذا البلد، طوع إرادتكم، ورأيتم في ذلك خيرا ومنفعة، والرأي رأيكم، ندعوا الله أن يجعله سديدا... وأن يجعل ما أنتم عليه أفضل مما كنتم فيه، وما تؤولون إليه أحسن مما أنتم عليه؛ إلى أن تلقوا الله وهو عنكم راض.

إخوتي وأخواتي:

إنكم لم تهربوا من جهنَّم في بلدكم إلى جنَّة هي هذا البلد الذي آواكم، ولم تتركوا جنَّة هي بلدُكم إلى جحيم هو هذا البلد الذي استقبلكم، لكنكم خرجتم من ابتلاء واختبار إلى ابتلاء واختبار آخر، ولعلنا نقيم مقاربة بين ابتلائكم هنالك وابتلائكم هنا، بين امتحانكم هنالك وامتحانكم هنا، فنقول:

أولا. إنكم خرجتم من أرض تنسب إلى العالم المتخلِّف الثالث، حديثة العهد بالاستقلال، تُعاني العديدَ من الأزمات المادية منها والمعنوية، في الحياة اليومية، وفي الذهنيات، وفي التصرفات، وفي الحريات، وفي السياسات... إلى بلد جديد يُعتبر طليعة المدنية المعاصرة، لطالما كان أنموذجا للعالم في التطور والنماء، وفي التعليم والبحث العلمي، وفي الحريات والقوانين، وفي الانفتاح على الآخرين...

ثانيا. من جهة أخرى، إنكم تركتم هنالك أهلكم وديارَكم، آباءكم وأمهاتكم، أعماكم وعمَّاتكم، أخوالكم وخالاتكم، أرحاكم وأصهاركم، أصدقاءكم وأصحابكم... وجئتم إلى هنا في غُربة، فبنيتم علاقات جديدة، لكنها لا تغنيكم عن العلاقات هنالك...

ثالثا. نوع المحن والفتن هنالك مختلف عنه هنا، فإذا كانت الفتنة هنالك تطال كرامة الإنسان، وتدفعه طوعا أو كرها للظلم وللغيبة وللرشوة وللانتقام، وتعرِّض أخلاقه للتدهور، والفساد، وتشجعه على أن لا يحترم الآخرين، وعلى إذاية الناس في كل وقت وحين...

إذا كانت الفتنة هنالك كما ذكرتُ، فإنَّ الفتنة هنا تطال الأفكار والتصورات، وتهز القناعات والمعتقدات، فكم من فكرة حول حرية المرأة، أو عدالة الإسلام، أو تحريم الربا، أو الديمقراطية في الإسلام، أو شؤون العلاقات بين الجنسين... أو غيرها، كم فكرة من هذا القبيل عرَّضت عقيدة الواحد منكم في الغربة للمخاطر والمهالك، فكان قاب قوسين أو أدنى من سخط ربه، أو والعياذ بالله كان في سخط مولاه وخالقه...

إخواني في الله، أقول، ولا أطيل:

عليكم - هنا - بالتسلح بالإيمان واليقين، ثم الواجب عليكم أن تلوذوا بالعلم والدليل والبراهين، وعليكم ثالثا أن تجتهدوا في العمل جماعة، وعلى

العمل المنظم المحكم، وعلى التخطيط...

ثم الله الله في ذرياتكم، ربُّوهم على الطريق المستقيم، واحذروا أن تجعلوهم عرضة لغضب الربِّ الرحيم، أنفقوا عليهم كلَّ ما تملكون: من مال، ووقت، وحنان، وحوار، وأسفار، ومدارس... فهم رأس مالكم، في صلاحهم سعادتكم، وفي شقائهم فساد أمر دينكم ودنياكم.... والأحمق من ضيَّع دينه بدنياه، وأحمق منه وأكثر غفلة من ضيع آخرته بدنيا غيره....

فإني أناشدكم الله تعالى بالمعالي، واحذروا السفاسف والمهاوي، ولتكن هممكم شامخة تحاكي الثريا، ولا تخلدوا إلى الأرض والدحضاض والمشاكل الجزئية والصراعات الهامشية، ووساوس الشيطان، والقيل والقال، والإغراق في الجزئيات والتفاهات، فإنَّ ذلك يدفعكم إلى الغفلة عن المبادئ والكليات، والإعراض عن الإنجازات والانتصارات، ويحوِّلكم إلى مهزلة أمام الخلق، وقبل ذلك وبعده يسلط عليكم سخط مولاكم وخالكم، ويحرمكم رضا إلهكم وهاديكم...

الله الله في الإبناء والذرية...

ثم الله الله في الهمم والعقائد...

ثم الله الله في مصيركم دنيا وآخرة..

إننا ننتظر منكم أن تجتهدوا وتجاهدوا حتى تكونوا، بإذن الله تعالى يوما ما، سببا للتمكين لدين الله في أرض الله، وتُعلوا كلمة الله بين عباد الله، لا أن تكونوا عالة على الأمة ووبالا لها ووباء...

يُها المستمعون، إنَّ سببَ الهلاك ومدعاته هو الجهل المطبق لا ريب، وسواءٌ في ذلك جهل التابع أو جهل المتبوع...

فلنُعلنها حربا ضروسا على الفُرقة، وعلى الجهل، وإني مِن علا هذا المنبرِ المحمود، وفي هذا اليوم المشهود، لأبعثُ برسالة إلى كلٍ منكم، وإلى كل عاقل، وإلى كلِّ تاجر وطالب علم من أبنائنا... رسالةٍ عنوانها:

كفانا تشرنقا، كفانا تشرذما، كفانا سذاجة، كفانا تخلفا...

فلنعرف عدوَّنا، ولنتق الله في صديقنا، ولنَصُغ ميثاق نهضتنا، ولنقف وقفة ترضي ربنا، وتكسبنا شفاعة نبيِّنا.

اليوم، وفي هذا اليوم المشهود، أَهِيب بكم أن لا نُمدَّ أعداءنا برقاب بعضنا... ولا ندنيَ بهمَّتنا إلى الدركات الدُنى.

ولن يكون ذلك إلاَّ بالعلم أولا، وبالعلم ثانيا، وبالعلم ثالثا... ثم بالوَحدة رابعا وخامسا وسادسا... ففي كتاب ربكم: «قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكَّر أولو الالباب»، «وأطيعوا الله ورسولَه، ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحكم»، وفي سنة نبيكم: «من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما جميعا فعليه بالعلم»

هكذا - أبناءَ هذا الجيل - كونوا أو لا تكونوا، فإذا لم نكن فلا مرحبا بنا، ولا مكان لنا في صفِّ النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإذا كنَّا ولا إخالنا إلاَّ كذلك، فإننا نبشِّر بغد مشرق، وبنَصر لأمَّتنا مُطبَق، وبتمكين لدين الله قاب قوسين أو أدنى... ويومها، سيكون لتكبيرنا أكثرُ من معنى...

وفي انتظار ذلكم اليوم المنشود، نبدأ التكبير مخلصين لله منيبين، فكبِّروا جميعا، وقولوا:

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر...

الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله تسليما كثيرا.

والسلام عليكم.

الملحق رقم 03

من مونتريال إلى معقد الآمال، خاطرة بمناسبة افتتاح العام الجديد [2]

من مونتريال حاضرة الحضارة، إلى الجزائر معقد الآمال ومصنع الحضارة... من برودة الجوِّ في غرب الدنيا، إلى حرارة الإنجاز وافتتاح العام الجديد في «المدارس العلمية الجديدة»، بفروعها، وأصولها، وإخوانها، وأخواتها... (المناهج، مكتب الدراسات، ودور القرآن، ومدرسة ذوي الحاجات، والشركاء في المنظومة... الخ)

إلى كلِّ إداري، سلام يدير الظهر للعشوائية والفوضى، ويصنع المجد بالتخطيط والحسنى... إلى كل معلِّم، تحية تعلّمنا كيف نحب في الله، وتعلّمنا كيف نبني مجدنا بعقولنا وحِجانا، يوم نعلّم حَرفا لأبنائنا وبناتنا...

إلى كلِّ تلميذ وطالب علم، تهنئة فحواها أن اسمُ للعلا، واعتلِ عرش الرضا، بنفورك في طلب ما أمر الله أن يطلب: العلم النافع، والخلق الرافع، والجهاد الدافع...

إلى كلِّ ولي، ولِّي وجهه شطرَ الخالق الجبَّار، فأعلنَها حربًا على الجهل والجهَالة، وتَخِذَ قولَ معلِّم الناس الخير، محمد: «تعليم الصغار، يطفئ غضب الجبار» شعارا وانتصارا...

إلى كلِّ إداريٍّ، ومعلم، وتلميذ، ووليٍّ... سواء في ذلك أكان رجلا أم امرأة، صغيرا أم كبيرا، فقيرا أم غنيا... فإنكم في جيش المصطفى جنود، ولنصرة الدين أسود...

من هنا، من مونتريال، وقد زرت مدارس ومعاهد، وعاينت مسلمين يدفعون الغالي والنفيس ليتعلم أبناؤهم «آية واحدة» من كلام المنان، بل وكلمة واحدة بلغة القرآن، وخُلقا واحدا يحميهم من الهوان، ويعلي مقامهم لدى الملك الديَّان...

إنهم في جهاد مرير، واجتهاد مثير...أُدعو الله لهم...

إلى هنالك، حيث أنتم في جزائر العزِّ، وقد قرَّرتم أن تبنوا المعالي بالعلم، وتعبدوا الخالق بالعلم، وتعيدوا للعلم رونقه وبهاءه وجماله... وللخلق الحسن مكانه، وقدره، وشأنه...

إخواني، الصغار قبل الكبار، لا تضعوا عنكم ثوب الحرب حتى يحلَّ السلم، ولا تخلدوا إلى الأرض حتى تطؤوا النجوم، ولا تفشلوا، ولا تتنازعوا، ولا تستعجلوا، ولا تولُّوا أعداءنا الأدبار... واعلموا أنكم عند الله مصطفون أخيار...

هذا باختصار مقالي وما جاد به القلم على علاته، وأنا في شوق لحضور ما أنتم فيه شوق الغريب والحبيب... فسلامي، ثم سلامي، ثم سلامي...

---

2 مونتريال، كندا، صبيحة السبت 26 سبتمبر 2009.

الملحق رقم 04

خطبة الوداع، في مونتريال بكندا [3]

إليكم أهل العزّ والكرم...

أتيتكم على عجل، كما أتى موسى ربَّه على عجل...

عجل موسى - عليه السلام - عن قومه وذهب إلى ربِّه، أمَّا أنا فعجلت عن أهلي وقصدت قومي، راجيا عفو ربّي... فاعتذرتُ بما اعتذر به موسى حين سأله ربه:

«ما أعجلك عن قومك يا موسى؟»

وقلت بحياء واستحياء: «وعجلت إليك ربِّ لترضى»...

لم تكونوا مثل قوم موسى عليه السلام، بل يشهدُ الله أنكم كنتم مثل صحابة محمد عليه ألف سلام، وقد قال عنهم رب الأنام:

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا...» (سورة الفتح 29)

إلى أن قال:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» (سورة الفتح 29)

فكنتم - أحبّتي - أُباة هداة، لا يشقى جليسكم... وكنتم - إخوتي - كراما حُماة، لا يستوحش ضيفكم...

استجبتم لنداء الصلح والأخوَّة بنفوس مطمئنة، راضيةٍ مرضيةٍ... وإني لألهج بالدعاء أن يدخلكم الله في عباده وأن يدخلكم جناته...

تناسيتم حظوظ النفس، وهجرتم وساوس الخنَّاس، ففررتم إلى ربِّكم، ترجون رحمته، وتخافون عذابه... فآواكم وأيَّدكم بنصره، ورزقكم من الطيبات، لعلَّكم تشكرون... وقد كنتم من قبل - ولا تزالون - قليلا مستضعفين في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس...

❖ اليوم وقد حان الفراق بعد التلاقي، ولم تبلغ بعدُ التراقي... فإنه بإذن الله وداع سيليه اجتماع... وإنه بعون من الله سلام يستتبع سلاما... إلى يوم نلقى الله وهو عنا راض...

---

3 مونتريال يوم الأحد، 16 شوال 1430هـ، 4 أكتوبر 2009م

إخوتي، قبل عددٍ من السنين ودَّعكم رجل كريم[4]، زاركم كما زُرتكم، وأفادكم بأفضل مما أفدتكم، وكان الرائدَ والسباق للمبرَّات، فكانت له معكم أيام وما أحلاها من أيام... ثم جاء يومُ رحيله، فودَّعكم باسم الله، واستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، في دينكم و أمانتِكم وخواتم أعمالكم... ثم أتى الجزائرَ لسانا لاهجا بالحمد والثناء على حسن صنيعكم، فذكر لكم ذلك مبرَّة عند بارئكم، وحفظها الناسُ عنكم كرامات وحسنات تضاف إلى رقم حسابكم...

وما هي إلاّ سنةٌ واحدة، حتى أدركه الموت، وقد صدق فيه قول العزيز الحكيم:

«وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ، فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» (سورة النساء 100)

فمات مهاجرا إلى الله ورسوله، وودَّع الدنيا وفي جعبته بركات من بناتِ أيديكم السخية، وقد حملها إلى الله شهادة وأيّ شهادة...

❖ اليوم وقد حان الفراق بعد التلاقي، ولم تبلغ بعدُ التراقي... أودِّعكم، ولا أدري لعلِي ألقى الله اللحظة أو غدا مستبشراً، أو بعد عام أو أكثر أو أقل محتسبًا...

أودِّعكم وأنا أردِّد قول الرسول الأعظم يوم الوداع: «أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا»

وأكرِّر ما قاله حرفا حرفا، وكلمة كلمة؛ لأنّ الموقف كما كان صادقا في وصف أولئك، فإنه يصدق عليكم وعلينا جميعا إلى يوم الدين، فأقول:

«أيها الناس: إنّ دماءكم، وأموالكم، عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربّكم... كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت...» الحديث.

ولا أطيل حتى لا أمَلّ، فأطلبُ من كلِّ واحد منكم أن يغفر لي ما قد أكون قصَّرت في حقِّه، أو ضيَّعت من واجب في جنبه... فاغفروا لي، وقد غفرت لكم... واعذروني، وقد سامحتكم واحدا واحدا... بلا استثناء...

ثم، إني بعد هذا أنصحكم بسبع نصائح موجزة، فتقبَّلوها هدية ورمز حبٍّ ووفاء، يوم الوداع والرحيل، عسى الله يمح سيئاتنا جميعا، ويرحم والدينا

4 هو الشيخ الفاضل محمد مصباح، رحمه الله تعالى، وقد توفي بعد حادث مرور أليم، وهو متوجه إلى العاصمة لإلقاء دروس الوعظ فيها.

جميعا، ويحفظ أهلينا وذرياتنا جميعا... ويجمعنا في جنة الخلد إخوانا على سرر متقابلين جميعا:

1. اتقوا الله تعالى فيما تأتون وفيما تذرون، فتقوى الله هي ملاك كلِّ خير...

2. علِّموا أولادكم وأهليكم أمر دينهم، ولا تفرِّطوا في ذلك شرو نقير.

3. عليكم بمعالي الأمور فإنها برُّ الأمان، واحذروا سفسافها فإنها هلاك وهوان.

4. اهجروا الفرقة والتشرنق والتشرذم، وكلَّ أسباب السذاجة، وجميع معاني التخلف... فقد رُشِّحتم لأمر عظيم لو وعيتم...

5. خذوا من هذا البلد أحسن ما فيه، واطرحوا أرضا كلَّ ضلالة أو جهالة مما ترونه فيه..

6. صوغوا ميثاق حضارتنا بأيديكم، وكونوا لبلدكم عونا ومعونة، ولا تكونوا له خيبة أمل وحسرة...

7. العلمَ... ثم العلم... ثم العلم...أقولها ثلاثا، وأقصد كلَّ العلم لا بعضه، وأعلَى الفهم لا أدناه، وأنفعَ المعرفة لا أضرَّها...: العلمَ، ثم العلم، ثم العلم... لكم، ولأهليكم، ولذويكم، ولأمَّتكم، ولأمَّة المصطفى نبيكم...

وأخيرا، لا آخرا... أشكر الإخوة يس، ومصطفى، وإبراهيم، وسفيان [5]... وجميع الآخرين، ممن سهَّلوا لي هذه المهمَّة، وحمَّلوا أنفسهم ما لا تحتمل، فكانوا وكنتم جميعا، نعم الناس...

وشكرا آخر لحلقة الإباضيين الميزابيين بكندا، الذين تكرَّموا عليَّ وعليكم بهذه النفحات الربانية، وبهذه الحلقات الإيمانية...

وشكرا ثالثا، للجميع، من كلِّ حدب وصوب، ابتداء من الجمعية القومية الميزابية، ونهاية بالقائمين على التربية والتعليم، في المدرسة الفتية...

وشكرا أخيرا، لنسائنا اللواتي كنَّ آذانا صاغية، وقلوبا واعية، وعقولا متقدة... زادهن الله مقاما ورفعة، وتوفيقا وهداية...

السلام عليكم، ورحمة الله وبركاته

---

5 أقصد الإخوة: يس تزقفين، ومصطفى لولو، وإبراهيم دواق، وسفيان بوستة...

الفهرس

مقدمة 05

الرحلة الفارسيَّة 09

- ❖ يوم السفر 09
- ❖ السفر إيمان 10
- ❖ تفكُّر في دورة الرزق 11
- ❖ تفكُّر ثان 12
- ❖ تلوُّث النظر 13

1. اليوم الأول: المعرض الدولي للكتاب 15
2. اليوم الثاني: صلاة الجمعة في طهران 19
3. اليوم الثالث: في أكاديميا علوم القرآن 23
4. اليوم الرابع: في المكتبة الوطنية (كتابخانه ملي) 26
5. اليوم الخامس: في مدينة قم 29
6. اليوم السادس: في مجمع التقريب 32

المقالة الدمشقية 37

1. المرجعية والتخلف 37
2. الفقيه والمرجعية 40
3. عاصفة الثقافة العربية 42
4. رسالة ... من حافة القبر!!! 45
5. هل وحَّدَنا العدو المشترك؟ 49
6. رسالة إلى من شغلته الفتن... ففتن 51
7. المرجعية بين رضا الله ورضا الناس 53
8. كيف يتحقَّق النصر؟ 55
9. دموع سخينة على أطفال بلادي 57
10. سذاجة الإلحاد 60
11. لا إله إلا الله، ميلادك الجديد 62
12. من قال «لا إله إلا الله» دخل الجنَّة، وإن زنى وإن سرق 67

تجليات كندية 69

1. من الذهب الأسود... إلى الماس الرمادي 69
2. جزائرية... لا شرقية ولا غربية 71
3. في جامعة McGill 73
4. مملكة الكتاب أو مكتبة كِباك (Québec) الكبرى 76
5. تحت القبة البيولوجية 79
6. ليلة القدر في مونتريال 82
7. دورة المقاربة بالكفاءات 85
8. شلالات نياغارا، بديع خلق الله 88
9. عيد بأية حال عدت ياعيدُ 91
10. في كندا، الأصل براءة الذمة 94
11. حديقة النباتات، حيث العقل يصنع المعجزات 96
12. ... وجاء يوم الوداع 99

مقالات فاتح القسطنطينية 103

1. مِن سما حيث الفكر سما 103
2. جنازة في مدينة الإسلام 110
3. كِرْكُلاَزْاَلِي: قرية آوت ونصرت 115
4. وقف الكتاب والصحفيين 122
5. زمان وجيهان: حين يصير الإعلام نظيفا 126
6. فام لصناعة الإنسان 130
7. جوشكن: مدارس من العالَم الملائكي! 134
8. طبَّاخة العجين، وطبَّاخ البنين! 140

الملاحق 145

الملحق رقم 01: قائمة الكتب من المعرض الدولي للكتاب 146
الملحق رقم 02: خطبة عيد الفطر المبارك، بمونتريال 148
الملحق رقم 03: من مونتريال إلى معقد الآمال، خاطرة 154
الملحق رقم 04: خطبة الوداع، في مونتريال بكندا 155

مِن بنات الأسفار

إنّ الهدف من كلِّ سفَر من أسفاري هو نصرة الخير والانتصار له، ومحاربة الشرِّ ونصب الحواجز في طريقه... ولذا أجدني أحمل عقلي معي، لا ازمُه في حقيبتي، ولا أحنِّطه بين الأسواق الشهيرة، ولا بين مرايا الحوانيت الكبيرة، فقد تحرِّكني أدنى عبارة، وقد تهزُّني أصغرُ إشارة، فأنطلق منها للتعبير عن أوسع المعاني وأجمل المباني، الفنية والعلمية والتاريخية والحضارية...

فإن وفِّقت في ذلك فمن الله، وإن أخفقت فهذا ضعفي، أستغفر الله منه.

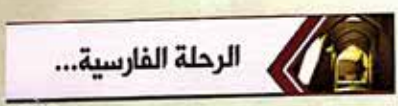

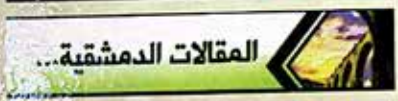

001
2011
kitabook.net
ISBN 978-9947-617-24-7